الفصل الثالث

التأسيس القرآني للتربية

مقدمـــــــــــة:

الدين بما هو إلهى يتصف بالمثالية والكمال، فهو تعاليم يتمثل فيها الحق المطلق بناء علـــى الكمال الإلهى الشامل بأحوال الوجود، والمحيط بمصلحة الإنسان فى مختلف متقلبات حياتـــه، كما أن الدين – والحديث عن الدين الإسلامى -حقيقة مصدعة لهدى الإنسان مطلقا عـــن مقيدات وجوده الزمانية والمكانية، فهى فى أوامرها ونواهيها تخاطب بالتكليف الناس كلـــهم على اختلاف أوضاعهم الذاتية [1].

وإن من أسس العقيدة الإسلامية أن المصدر الوحيد للدين هو الوحى، والوحى منـــضبط محدد فى أصلين، هما: القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وكل من هذين الأصلين منحصر فى نص محدد، تناقلته الأمة فى المصحف الشريف بالنسبة للقـــرآن، أو فى دواويـــن الـــسنة للحديث، ولهذا النص المستوعب للوحى خصائص وأحكام وتوجهات، سواء فى طبيعته من حيث هو وحى إلهى، أو من حيث تحمله لتعاليم الهدى، أو من حيث طريقة عرضـــه إياهـــا على الناس لتتمثلها العقول على سبيل التكليف.

ويتوقف فهم الدين إلى حد كبير على معرفة تلك الخصائص والأحكام والتوجهات، وقد أدى الجهل بها أو تجاهلها قديما وحديثا إلى انحراف فى الفهم، بلغ أحيانا إلى ما يهدم الـــدين نفسه وينقضه من أساسه [2].

ومن هنا يجئ تناولنا فى الفصل الحالى للأصل الأساسى للإسلام، ومن ثم للتربية الإسلامية، ألا وهو القرآن الكريم ...

ونجد أنه من الضرورى أن نقدم للقارئ عددا من الجوانب التى تشكل أسسا مهمة لابـــد للقارئ فى العلوم التربوية أن يكون ملما بها حتى يحسن التعامل مع القـــرآن الكـــريم ســـعيا لاستنباط كل ما يمكن من مضامين تربوية فى آياته الكريمة، خاصة وأن الجمهرة الكبرى من قراء العلوم التربوية لم تتح لهم فرصة دراسة علوم دينية كان يمكن أن توفر لهم مثل هذا.

---

(1) عبد المجيد النجار، فى فقه التنزيل، الدوحة، رئاسة المحاكم الشرعية والدينية، كتـــاب الأمـــة،ج١، ١٤١٠هـــ، ص ٢٧.

(2) المرجع السابق، ص ٤٥.

أولا – أساسيات قرآنيـــــــة

القرآن الكريم، دستور بناء الإنسان:

مصدر الإسلام، ومشرع أحكامه ومناهجه وتوجهاته، هو الله تعالى، فهو وحيـــه إلى رسوله الكريم r باللفظ والمعنى (القرآن الكريم)، يقول عز وجل:

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) (القدر: ١)

(وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) (الحجر: ٨٧)

(وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ) (النمل: ٦)

(إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ) (الزمر: ٢)

(تَنزِيلُ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) (السجدة: ٢)

ومن ثم كان القرآن الكريم واجب الاتباع، قال عز وجل:

(وَهَـــذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (الأنعام: ١٥٥)

لكن هناك من أنكروا أن القرآن هو كتاب من عند الله واجب الاتباع، فجاءت آيـــات تتحدى المنكرين وقت نزول القرآن، وإلى ما شاء الله ...

(قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـــذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) (الإسراء: ٨٨)

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّـــهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) (هود: ١٣)

(وَمَا كَانَ هَـــذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَـــكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْـــصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) (يونس: ٣٧)

وكانت نتيجة هذا التحدى المتكرر من قبل رسول الله r إلى قريش وسائر المخالفين، أن عجز المخالفون عن كسر هذا التحدى أو عن محاولة كسره بل صمتوا صمت الجدار وراحوا يسلكون سبلا أخرى تقوم على الكذب والافتراء واستعمال الصد عن ســـبيل الله بـــالقوة والإرهاب والإيحاء لمن معهم بأن لا يسمعوا للقرآن لئلا يتأثروا به [3]

قال تعالى مخبرا عن أسلوبهم هذا: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) (فصلت: ٢٦)

(3) عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، عمان، مكتبة البشائر، ١٩٨٨، ط٣، ص ٢٨.

والقرآن الكريم هو آخر كتاب نزل من عند الله تعالى، ومن أجل هذا تضمن خلاصة التعاليم الإلهية، وجاء مؤيدا ومصدقا لما جاء فى الكتب السابقة من توحيد الله وعبادته ووجوب طاعته، وجمع كل ما كان متفرقا فى تلك الكتب من الحسنات والفضائل، وجاء مهيمنا ورقيبا، يقر ما فيها من حق، ويبين ما دخل عليها من تحريف وتغيير، قال تعالى:

(وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ) (لمائدة: ٤٨)

وجاء بشريعة عامة للبشر فيها كل ما يلزمهم لسعادتهم فى الدارين، نسخ بها جميع الشرائع العملية الخاصة بالأقوام السابقة، وأثبت فيها الأحكام والتوجهات النهائية الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان [4].

والقرآن الكريم هو الكتاب الربانى الوحيد الذى تعهد الله بحفظه، فقال سبحانه وتعالى:

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (الحجر: ٩)

وقال أيضا: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) (فصلت: ٤١، ٤٢)

وهذه مزية متفرعة عن مزية أخرى، وهى أن القرآن أنزله الله على رسوله محمد ﷺ للناس كافة، وليس خاصا بقوم معينين، كما كانت تنزل الكتب السابقة فكان حفظه من التحريف، وصيانته من عبث الناس، ليبقى ما فيه حجة الله على الناس، قائمة حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ولعل البعض يتساءل عن وجه الحاجة إلى دراسة القرآن فى التربية الإسلامية، وعلى الرغم من أن فى كثير من صفحات الفصلين السابقين، وما سوف يأتى، بيان لذلك، إلا أننا نضيف هنا كذلك أن لهذا الكتاب العظيم أهمية بالغة من جوانب مختلفة متعددة، فإن له جانبا تشريعيا هاما، لا ينفك عن الحاجة إلى دراسته كل متطلع إلى دراسة الفقه والتشريع. وإن له مع ذلك جانبا متعلقا بالعقيدة والفلسفة والأخلاقيات، لا ينفك عن الحاجة إلى دراسته كل مقبل إلى دراسة العقائد أو الفلسفة أو الأخلاق، كما أن له مع ذلك جانبا ثقافيا عقليا أصيلا بعيد الجذور فى تاريخ العقل الإسلامى والعربى خاصة، والثقافة العربية الإسلامية، عظيم الأثر فى توجيهها وتطويرها وتقويمها، فمن أجل ذلك كان لابد لمن أراد العكوف على دراسة الثقافة العربية الإسلامية، ودراسة العقل العربى الإسلامى من أن يعكف على دراسة القرآن وعلومه، وكلما اابتغى مزيدا من التوسع فى الثقافة العربية الإسلامية، احتاج إلى مزيد من

(4) محمد نعيم ياسين، الإيمان، عمان، جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٩٧٩، ص ٦٧.

التوسع فى دراساته القرآنية المختلفة [5]، ولعلنا يمكن أن نشير إلى بعض من هذه الآثار العقلية والثقافية:

فهذا الكتاب العظيم، هو أول كتاب ظهر فى تاريخ اللغة العربية، صحيح أن مضمون هذا الكتاب، كلام الله الأزلى القديم، وهو من هذا الجانب لا يبدأ من تاريخ وليس لـه مـيلاد ظهور أو تدوين، لكن القصد بالكتاب فى هذا المجال، هذه الكلمات والأحرف والصفحات التى تضبطه وتحده والتى ظهرت ودونت فى حقبة معينة من الزمن. وإنما نـشأت حركـات التدوين والتأليف بعد ذلك على ضوئه وتأثرت بوحيه وأسلوبه [6].

كذلك فإن اللغة العربية، إنما استقام أمرها على منهج سليم موحد بسر هـذا الكتـاب وتأثيره، وهى إنما ضمن لها البقاء والحفظ بسبب ذلك وحده، فقد كانت اللغة العربية مـن قبل عصر القرآن أشتاتا من اللهجات المختلفة المتباعدة، وكان كلما امتـد الـزمن، ازدادت هذه اللهجات غرابة وتباعدا عن بعضها، فلما نزل القرآن، وتسامعت به العرب، وائتلفـت قلوبهم عليه، أخذت هذه اللهجات بالتقارب، وبدأت مظاهر ما بينها من خلاف تـضمحل وتذوب، حتى تلاقت تلك اللهجات كلها فى لهجة عربية واحدة، هى اللهجة القرشية الـتى نزل بها القرآن الكريم، وأخذت ألسنة العرب على اختلافهم وتباعد قبائلهم تنطبع بطابع هذه اللغة القرآنية الجديدة [7].

وكان لهذا آثاره بعيدة المدى فى مختلف البلدان التى عرفت طريقها إلى الإسـلام، عقليـا وثقافيا وحضاريا. وهداية القرآن هى عماد إعجازه المعنوى الأصيل، الذى لا يختلف عصرا عن عصر، ولا جيلا عن جيل، ولا بيئة عن بيئة، وهذا اللون من الإعجاز هو مناط الحجـة البالغة القائمة مع خلود هذا الكتاب الحكيم، على أنه تنزيل من الحكيم الحميد، وما الإعجاز الأسلوبى فى براعة البيان العربى الذى اختص به القرآن الكريم إلا ثوب من نـسج الحكمـة العليا للقرآن كلام الله الأزلى وجودا، وقع به أكمـل الاتـساق والتناسـب بـين المعـنى والأسلوب [8].

---

(5) محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن، دمشق، مكتبة الفارابي، د.ت، ص ١٧.

(6) المرجع السابق، ص ١٨.

(7) المرجع السابق، ص ١٩.

(8) محمد الصادق إبراهيم عرجون، القرآن العظيم، هدايته وإعجازه في أقوال المفـسرين، دمـشق، دار القلم، ١٩٨٩، ص ١٤.

فالإعجاز المعنوى الأصيل فى القرآن هو إعجاز الهداية، وهو وصف ذاتى للقرآن، لا ينفك عنه ولا يفارقه أينما كان مع أجناس البشرية. والإعجاز الأسلوبى هو إعجاز الفوق بيانى المعبر عن المعنى المقصود أتم تعبير، والمؤدى إلى تصوير الهداية أكمل تصوير، وهو إعجاز يستند إلى عمل الحكمة العليا فى إبلاغ الهداية إلى مدارك المخلوقين، وهو إعجاز ذاتى للقرآن الكريم، كلام الله.

ولما كانت الهداية فى عمومها هى الغاية القصوى من الرسالات الإلهية – وهى فى القرآن عامة شاملة لجميع العقلاء المكلفين من الأفراد والجماعات والأمم والأجناس فى كافة الأزمان والأماكن لعموم رسالة القرآن وبقاء دعوته ببقاء النوع الإنسانى على هذه الأرض – كان بيانها بيانا يلائم كل بيئة فى كل بلد وأمة هو الوسيلة الناجحة لتبليغ رسالة الإسلام تبليغا عاما بأسلوب يجذب القلوب إلى تقبلها واعتناقها، ويدعو العقول إلى النظر فى حقائقها، ويقرب إلى نفس العامة والخاصة فهم أصول الإسلام نقية خالصة، بعيدة عما ألصق بها من الشوائب والخرافات والأساطير (9).

وهذا البيان للهداية القرآنية هو الوسيلة الصحيحة لإصلاح حال الأمة الإسلامية وجمع شملها وتصحيح وضعها فى الحياة بين الأمم الناهضة فى العلوم والمعارف والتقدم فى الإفادة من الكشف عن الحقائق الكونية، وأخذ حظه من التمتع بطيبات ما أنزل الله من رزق ونعم لتكون داعية إلى الشكر والمزيد.

محتوياته:

وباعتبار القرآن الكريم دستور التربية الإسلامية، كان من الطبيعى أن نلمس فيه ثراء واسعا بحيث يشمل جوانب متعددة من هذه الحياة، ومن هنا فإننا يمكن أن نشير إلى التصنيف الآتى لمجمل آياته والمحاور التى اخترناها لهذا التصنيف:

١ - عقائد يجب الإيمان بها: كالإيمان بالله وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله، وهى الحد الفاصل بين الإيمان والكفر.

ونحن إذا استقرأنا القرآن، فسوف نجد أن هناك ٣٦ عنوانا لسور تلتمس صفات الغيب وظواهره العجيبة وما يتصل بالنبوة، وهذه السور هي: (10) الفاتحة، ص، ق، الرحمن، الإخلاص، فاطر، الأعلى، الأنبياء، المرسلات، نوح، آل عمران، مريم، يوسف، هود، يونس،

(9) المرجع السابق، ص ١٦٢.

(10) خليل أحمد خليل: جدلية القرآن، بيروت، دار الطليعة، ١٩٨١، ص ٨٢ .

لقمان، إبراهيم، طه، يس، الواقعة، النبأ، القيامة، الحشر، القارعة، الحاقة، الجن، البينة، القدر، الملك، المعارج، الإسراء، السجدة، الأعراف، الكوثر، المائدة.

ونعتقد أن نقطة الانطلاق والنواة التي يدور حولها نظام الإقناع القرآني، تنحصر في هذه الفكرة الرئيسية، وهى أن صانعا يتصف بالكمال المطلق، خلق كل شئ في الوجود وأخضعه لإرادته خضوعا مطلقا:

(آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) (البقرة: ٢٨٥).

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) (آل عمران: ٦٤)

والإيمان ليس قولا يعلن ولا شهادة ينطق بها اللسان وحده، ولا آيات من القرآن تتلى في مقام الاستشهاد بالارتباط بالإسلام [11].

وهو كذلك ليس نصائح يوردها الناصح لغيره، ولا معرفة بالدين تلقن لمن لا يعرفها، ولا وظيفة خاصة يتعيش بها محترف:

(قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ...) (الحجرات: ١٤)

أي أنكم لم تقروا حقيقة بالإسلام ولم يستقر الإيمان في قلوبكم، وكل ما في الأمر أن أعلنتم فحسب رضاكم بالإسلام أمام الملأ، إما خوفا ووقاية أو طمعا في دنيا، فإن قلتم: أنكم أعلنتم الإسلام دينا لكم كنتم صادقين فيما تقولون، ولكن قولكم: أنكم آمنتم به غير صحيح، لأن للإيمان به مقتضيات تستوجب التضحية، إما بالنفس أو بالمال، أو بهما معا، وكذلك بالولد، إن كان هناك ولد، ولم يكن الإيمان لحظة ما سبيلا إلى النفع والمغانم ولا طريقا إلى الحياة ومتعها [12].

٢ - الأخلاق الفاضلة: التي تهذب النفوس، وتصلح من شأن الفرد والجماعة، وتحذر من الأخلاق الفاسدة التي تودي بمعاني الإنسانية الفاضلة وتسبب الشقاء في الحياة، من ذلك دعوته إلى:

---

(11) محمد البهي: من توجيه القرآن الكريم، الإيمان، القاهرة، مجمع البحوث الإسلامية، ١٩٦٩، ص٩.

(12) المرجع السابق، ١٠.

طهارة النفس: (...وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا) (الشمس: ٧-١٠)

العفة والاحتشام، وغض البصر: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ) (المؤمنون: ١-٧)

- الصدق: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا) (الأحزاب: ٧٠)
- الرقة والتواضع: (وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ) (لقمان: ١٩)

...إلى غير هذا وذاك مما سوف نفصله في موضع قادم بإذن الله

٣- الإرشاد إلى النظر والتدبر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من كل شئ لنعرف أسرار الله في كونه، وإبداعه في خلقه، فتمتلئ القلوب إيمانا بعظمته عن نظر واستدلال لا عن تقليد ومجاراة، وقد نعى القرآن كثيراً على الذين يقلدون الآباء والأجداد في عقائدهم ودينهم وعاداتهم السيئة، كما أنه فتح للناس بهذا الإرشاد باب البحث عن خواص الأجسام في أرضه وسمائه وهوائه ومائه فينتفعون بها في حياتهم ويستخدمونها في مقاصد التعمير والإنشاء [13]

إن هذا الكون هو المسرح الأول لفكرنا، وهو الينبوع الأول لإيماننا والذهول عن الكون سقوط إنساني ذريع، وحجاب عن الله غليظ، وفشل في أداء رسالتنا التي خلقنا من أجلها، وعجز عن التجاوب مع وصايا القرآن التي تكررت في عشرات السور [14]، منها على سبيل المثال:

(إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاء مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ) (الجاثية: ٣-٦)

(13) محمود شلتوت: الإسلام عقيدة وشريعة، القاهرة، دار الشروق، ١٩٧٥، ص ٤٠٧.

(14) محمد الغزالي: المحاور الخمسة للقرآن الكريم، القاهرة، دار الصحوة، ١٩٩٣ ص٦٠.

وهذه الآيات، قليل من كثير، مما نزل بمكة وتأكد بالمدينة، لإيقاظ العقول النائمة وتبصيرها بالدلائل المبثوثة في كل شئ تدل على الله، وتشرح أوصافه الجليلة.

وفى سورة آل عمران آيات منها أبواب العظة والاعتبار، ودلائل القدرة للذين خلصت قلوبهم من الأهواء والشهوات، وتحكم التقاليد الباطلة (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الألْبَابِ) (آل عمران:١٩٠)

ثم تصف أولى الألباب بصفتين، هما الحبل المتين الذي يصل الإنسان بربه ويقيه شر المآثم والطغيان في هذه الحياة:

(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ ...) (آل عمران:١٩١)، أي يذكرونه بعظمته وجلاله وقدرته في جميع أوقاتهم وفى جميع شئونهم، ثم يكون هذا الذكر نتيجة لتدبرهم في خلق السموات والأرض وما فيها من إتقان وإبداع، وعجائب وأسرار، فليس ذكرا ينطلق به اللسان، ولا يدفع إليه الجنان، إنما هو ذكر من القلب إلى سماء الرب، فيرفع همة صاحبه، فينطلق لسانه بالدعاء وقلبه بين الخوف والرجاء:

(...رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (آل عمران:١٩١)، تنزيها لك من الباطل في خلقك وفعلك وحكمتك، فقنا عذاب النار بدوام توفيقك وعنايتك [15].

ومن الآيات القرآنية أيضا:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) (لقمان: ١٠)

فهذه الآيات وأمثالها من الآيات المتعلقة بالكون، هي التي يعتمد عليها القرآن دائما في الاستدلال على الخالق وقدرته، وعلمه، وتفرده بالإيجاز، واستحقاقه للعبادة، وفى الحق فإنه لا يوجد شئ غيرها يمكن أن يقنع، وكل ما في كتب الفلسفة والكلام لا يمكن أن يهتدي به جمهور المسلمين، وهناك شك في أن العلماء اهتدوا به [16].

٤ - قصص الأولين أفرادا وجماعات وأمما، ليرشدوا إلى سنن الله في معاملة خلقه الصالحين منهم والمفسدين، وهذا قصد القرآن من ذكر القصص، فلم يذكره على أنه تاريخ محدد الزمان والمكان والأشخاص، وعلى الرغم من هذا، فقد شغل المفسرون أنفسهم وشغلوا الناس بتحميل الآيات القصصية ما لم يرده الله منها، وبذلك صرفوا الناس عن مقصد العظة

---

(15) محمود شلتوت: إلى القرآن الكريم، القاهرة، دار الهلال، ١٩٦٤، ص٤٤.

(16) محمد مصطفى المراغي: حديث رمضان، القاهرة، دار الهلال، سلسلة كتاب الهلال ١٤)، مـــايو ١٩٥٢، ص ٦٠.

والاعتبار فحرموا فائدتها وبقيت آيات تتلى لا ينتفع بها مؤرخ في تحقيقه، ولا مؤمن في اتعاظ واعتبار.

وإذا روجعت قصص القرآن الكريم مراجعة حقيقية، تبين للناظر في مضامينها أن عبرتها الأولى دروس ينتفع بها الهداة ودعاة الإصلاح، إذ كان من فرائض الإسلام الاجتماعية أن يندب من الأمة طائفة:

(...يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ...) (آل عمران: ١٠٤)

وكان من الأقوال الواردة في الأثر أن العلماء ورثة الأنبياء، فلا يخلوا مكان الدعوة في الأمم بعد الأنبياء، ويستغنى هداتها عن الأسوة الماثلة أمامهم في جهاد الهداية والإصلاح.

٥- أحكام عملية تتصل بما يصدر عن الإنسان، من قول أو فعل أو أي تصرف من التصرفات،وهذا النوع من الأحكام المتعلقة بالصلاة والزكاة والحج ونحو ذلك،مثل:

- في الصلاة: (...إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا) (النساء: ١٠٣)
- الحج:(... وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ...) (آل عمران: ٩٧)

وإما أحكام تتعلق بالمعاملات وهى التي تنظم علاقة الإنسان مع مثله وعلاقته بالمجتمع، وعلاقة الأمم بالأمم، مثال ذلك:

- معاشرة الزوجات بالمعروف: (...وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) (النساء: ١٩)
- قتل الإنسان: (...وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ...) (الأنعام: ١٥١)
- مراعاة العدل: (...وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ ...) (النساء: ٥٨)

وأما في اصطلاح العصر الحديث، فقد تنوعت أحكام المعاملات بحسب ما تتعلق به وما يقصد بها [17].

أساليبـــــــــــه:

جاء القرآن بأساليب متنوعة في توجيهاته، ووجوه خطابه، نظرا لاختلاف المخاطبين في أحوالهم ومستوياتهم وتعدد الأغراض التي تصدر إليها، والمواضيع التي عالجها، والحقائق المختلفة التي كشف لهم عنها.

وأنسب ما قيل في تعريف القرآن أنه: هو الطريقة الخاصة التي انفرد بها القرآن في إفادة المعاني بالألفاظ [18]. وحول هذا المعنى ذكر الرافعي أن القرآن إنما ينفرد بأسلوبه لأنه ليس

(17) عبد الوهاب خلاف: علم أصول الفقه، الكويت، دار القلم ط٨، د.ت، ص ٣٨.

(18) عبد الجليل عبد الرحيم: لغة القرآن، عمان، مكتبة الرسالة الحديثة، ١٩٨١، ص ٢٨٩.

وضعا إنسانيا البتة، ولو كان من وضع إنسان لجاء على طريقة تشبه أسلوبا من أساليب العرب أو من جاء بعدهم إلى هذا العهد ... ولقد أحس العرب بهذا الكلام واستيقنه بلغاؤهم، ولولاه ما أفحموا ولا انقطعوا من دونه، لأنهم رأوا جنسا من الكلام غير ما تؤديه طباعهم، وكيف لهم في معارضته طبيعة غير مخلوقة؟ (19)

وتنوع أساليب القرآن يرجع إلى تنوع موضوعاته، إذ لكل موضوع طبيعته الخاصة به التي تميزه عن غيره من الموضوعات، كما أن له أصولا وقوانين يجب التزامها ومراعاتها ...

أما أن لغاية الكاتب ومقصده من كلامه أثرا في اختلاف الأسلوب، فواضح أن أسلوب من يقصد إلى بث الحماس في النفوس وإلهاب المشاعر ومن يقصد إلى إثارة العواطف وإظهار إعجاب السامعين له، غير أسلوب من يقصد الإقناع، وشرح دقائق العلم وخفاياه. والقرآن قد جاء بأجل المقاصد وأسماها، تلك التي لم يجتمع في كتاب آخر سواه، فترتب على ذلك أن يكون أسلوبه مخالفا لأسلوب أي كلام سواه (20).

ومن المعلوم كذلك أن الناس مختلفون في طبقاتهم وثقافتهم ومذاهبهم، فمنهم الجاهل والعالم، والأمي، والمتعلم، والمؤمن والكافر، ومنهم البدائي والمتحضر، إلى غير ذلك، وعلى هذا فالذي يحسن لمخاطبة طائفة قد لا يحسن لأخرى، ولهذه الناحية أثر كبير في اختلاف الأساليب (21).

ومن هنا يمكن لنا أن نسجل فيما يلي عددا من الجوانب التي محاول من خلالها بيان "بعض" خصائص الأسلوب القرآني:

١- فليس القرآن مجرد كتاب يلتزم منهجا واحدا لبيان تشريعاته، وليس مجرد كتاب أدب يبغي هز المشاعر والأحاسيس وإثارة الأخيلة، وإنما هو كتاب لتربية الناس ينوع من أساليبه باختلاف المواقف والموضوعات، فلم يعبر في كل ما كان واجبا بمادة الوجوب، ولا فيما هو محرم بمادة الحرمة، بل يعبر طورا عن الواجب بصيغة الأمر بالفعل، كما في قوله تعالى:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ...) (التوبة: ١٠٣)

وطورا يعبر عنه بأنه الفعل المكتوب، كما في قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة: ١٨٣)

---

(19) مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن، القاهرة، مطبعة الاستقامة، ١٩٥٦، ص ٣٣٢.

(20) عبد الجليل عبد الرحيم، لغة القرآن، ص ٢٩٠.

(21) المرجع السابق، ص ٢٩١.

وتارة يدل على الوجوب بما يترتب على الفعل في الدنيا أو الآخرة من خير. أما ترتب الخير على الفعل في الدنيا، فمثله قوله تعالى:

(...وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ) (الطلاق: ٢-٣)

(وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) (فصلت: ٣٤)

فدفع السيئة بالحسنة واجب، وهذا الوجوب لم يعبر عنه بمادة "وجب"، وإنما دل عليه بما رتبه على الفعل في الدنيا من خير، وهو صيرورة العدو صديقا حميما [22].

وأما ترتب الخير على الفعل في الآخرة، فمثل قوله تعالى:

(مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ) (غافر: ٤٠)

وكما نرى القرآن الكريم يعبر عن الواجب بغير مادة الوجوب، نراه يعبر عن المحرم بصيغة النهى، كما في قوله تالي:

(وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً) (الإسراء: ٣٢)

وتارة يعبر عن المحرم بأنه شر وليس من البر كما في قوله:

(وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...) (آل عمران: ١٨٠)

وتارة يدل على المحرم بما يرتبه على الفعل الآجل أو العاجل من شر، مثل قوله:

(...أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ) (التوبة: ٣٤، ٣٥)

ولهذا الأسلوب قيمته التربوية الكبرى، فالإنسان – كما نعلم – لا يميل إلى الأسلوب المباشر في النصح والإرشاد، لأنه يحب دائما أن يشعر أنه عندما يأتي فعلا طيبا فإنما يفعل ذلك بدافع داخلي لا بناء على أوامر ونواه، ومع أن المربى هنا هو الله سبحانه وتعالى مما يوجب على الإنسان أن يستمع إليه وينقاد لما يأمره به وينهاه سبحانه عنه، إلا أنه يخاطبه بما

(22) السيد عبد الرحيم عطية: بلاغة الأمر والنهى في النسق القرآني، القاهرة، السلام العالمية، ١٩٨٥، ص ٨٥.

هو مفطور عليه بغير قهر أو قسر، فكأنه بذلك يبين للإنسان أيضا ضرورة أن يسلك مثل هذا السلوك في دعوته لغيره من الناس وفى تربيتهم وتعليمهم حتى يأتي بأحسن النتائج [23].

٢- ولفصاحة اللغة دورها في تسهيل وصول المعاني إلى المتعلم، ولا غرابة في ذلك، فاللغة هي أداة الاتصال الرئيسية في التواصل الاجتماعي والتواصل الثقافي، ومن ثم فلا تأتى عنايتنا بها هنا من الناحية الأدبية والبيانية، وإنما من حيث ما يؤدى جمال المعمار اللغوي للرسالة من قوة تأثير على السامع أو القارئ. ولعلنا لو استقرأنا عددا من المفكرين والأدباء الذين عرفوا في تاريخنا بروعة الأسلوب، وبلاغة اللغة، فسوف نجد أنهم كانوا هم الأقوى تأثيرا في الناس، والأبقى أثرا في تطور العقل العربي والفكر الإسلامي في مختلف العهود.

وقد صارت ألفاظ القرآن بطريقة استعمالها، وجودة تركيبها كأنها فوق اللغة، فإن أحدا من البلغاء قد لا يمتنع عليه أن تأتيه فصاحة هذه اللغة متى أرادها، ولكنه مهما بلغ لا تقع له مثل ألفاظ القرآن في كلامه وإن اتفقت له نفس الألفاظ بحروفها ومعانيها، لأن للقرآن في استعمال لغته طرائق ووجوها يعجز البشر عن الإتيان بها [24]، فقد تكون اللفظة، مثلا، ثقيلة، فإذا بالقرآن يستعملها في موضع وسياق فتأتى أخف ما تكون وأعذب ما تكون، ومثال ذلك، كلمة "النذر"، وفيها من الثقل ما لا يخفى، نجده سبحانه وتعالى يأتي بها في قوله تعالى: (وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ) (القمر: ٣٦)، خفيفة سهلة.

وللقرآن دقة في التعبير واضحة لا تخطئها عين دارس، وتحقق هذه الدقة بطرق عديدة ترتبط ببناء العبارة، سواء أكان منها ما يتصل بالمفردات أو المعنى أو النظم. والقرآن يهتم دوما في تعبيره بما هو أهم في المعنى، وألصق بالنفس وأكثر تحريكا للذهن، وذلك لكي تأخذ العبارة منفذها إلى النفس، ويكون طابع تعبيرها مع دقة متناهية، فالدقة تحدد الذهن والمعنى، وتضع العبارة واضحة لا غموض بها، وذلك لتمكن الوجدان من التفاعل بها، والعقل من استساغتها [25].

ويختلف أسلوب القرآن في التعبير عن حقيقة التوحيد والدعوة إليها عن مناهج المتكلمين والفلاسفة ومن تابع طريقتهم من المفسرين، ولننظر في الآيات التالية كيف عبر القرآن بعدد من أساليب العطف عن حقيقة التوحيد ودعا إليها في إطار صيغة عطف كلية تتضمن معنى الشكر بصفة عامة، كما تتضمن معنى البر بالوالدين بصفة خاصة، وذلك بصورة نمطية شبه

(23) سعيد إسماعيل على: القرآن الكريم رؤية تربوية، القاهرة، دار الفكر العربي، ٢٠٠٢، ص ١٦١.
(24) عبد الفتاح الفاوي: الإعجاز اللغوي للقرآن، ص ٣٥.
(25) عمر الإسلامي، الإعجاز الفني في القرآن، ص ١٠٩.

مطردة، وفى كل صيغة من هذه الصيغ الكلية يتم التراسل بين ماهيات المعنيين في سياق لغوى خاص يعبر عن حقيقة الإسلام [26]، يقول تعالى:

(وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ...) (النساء: ٣٦)

(قال تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا) (الأنعام: ١٥١)

(وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا ...) (العنكبوت: ٨)

٣- ومن أساليب القرآن "النفي"، ويهمنا هنا الوظيفة التربوية للنفي، غير هذه الخاصية اللغوية والأدبية، فهو هنا يقوم بدور التربية السلبية بمعنى المحو والإزالة لما يؤسس للتفكير المنحرف، والسلوك غير القويم، تمهيدا للخطوة التالية من حيث التربية الإيجابية والتي نعنى فيها ببث كل ما يعين على بناء الشخصية المسلمة.

ومن هنا نجد أن النفي قد جاء في القرآن ليترع من العقول والنفوس الكثير من العقائد الفاسدة والأوهام والخرافات الباطلة، ويرسم للحق الصورة الصحيحة، ويثبتها في القلوب والعقول بأسلوبه الأخاذ وطريقته المثلى في التركيب، ولهذا نجد صور النفي تتخذ أشكالا مختلفة، من ذلك:

نفى الشرك عن الله، ومظنة الظلم أو السهو، تعالى الله عما يقول الذين في قلوبهم مرض، فيقول:

(... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ) (الشورى: ١١)

(وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ) (الزخرف: ٧٦)

(...لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ ...) (البقرة: ٢٥٥)

وكذلك ذم الحياة الدنيا عند التكالب عليها واعتبارها هدفا في حد ذاته، فعند ذلك نجد الله عز وجل يكشف حقيقتها ليترع من القلوب التعلق بها، والحرص الشديد عليها، وكذلك ذم أهلها ونفى تصوراتهم الباطلة نحوها، وذلك مثل قولهم:

(إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) (المؤمنون: ٣٧)، فقال تعالى:

(وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ...) (العنكبوت: ٦٤)

(26) عفت الشرقاوي: بلاغة العطف في القرآن الكريم، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨١، ص ١٩٧.

٤- ومن أساليب القرآن الكريم، اجتماع "الجزالة" و "الرقة" بما يكون له أثره النفسي بعيد المدى، فتعرف المعاني والدلالات طريقها بسهولة إلى العقل والقلب، ومن ثم السلوك، إذ من المعروف عند أهل البيان أن الألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى جزلة ورقيقة، ولكل منهما موضع يحسن استعماله فيه، فالجزل منها يستعمل في موقف الحروب، وفى قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك. وأما الرقيق منها، فإنه يستعمل في وصف الأشواق وذكر أيام البعاد وفى استجلاب المودات وملاينات الاستعطاف وأشباه ذلك. ولا يعنى بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشيا متوعرا عليه عنجهية البداوة، بل أن يكون متينا على عذوبته في الفم ولذاته في السمع. وكذلك لا يعنى بالرقيق أن يكون ركيكا، وإنما هو اللطيف الرقيق الحاشية، الناعم الملمس [27] .

ولعل من أبرز النصوص القرآنية التي تتضح فيها الجزالة، الآيات من ١-٣٧ من سورة الحاقة، فبتأمل هذه الآيات نجد المشهدين اللذين يتكفل بعرضهما هذا النص الكريم من أقوى المشاهد الإنسانية روعة وإدهاشا وأخذا بالألباب والأحاسيس.

أما المثال الدال على الرقة، فنجده في الآيات من ٢٦-٤٥ من سورة غافر، فهذا النص يعرض حوارا هادئا في جلسة رسمية يقف فيها فرعون موقف الجريح الحائر بعد أن ظهرت نبوة موسى عليه السلام مؤيدة بالمعجزات الخارقة [28].

٥- ومن خصائص أسلوب القرآن الكريم، أنه يخاطب العقل والقلب معا، ويجمع الحق والجمال، فكأنه بهذا يحيط بالنفس الإنسانية من جانبيها معا الجانب المعرفي والجانب الوجداني في وحدة كلية لا تترك لصاحبها مهربا، فيذعن للحق، ويلزم الصراط المستقيم، وعلى سبيل المثال، ففي قصة يوسف، نجد كيف يأتي في خلالها بالعظات البالغة، ويطلع من خلالها بالبراهين الساطعة، على وجوب الاعتصام بالعفاف والشرف والأمانة، إذ قال في فصل من فصول تلك القصة الرائعة:

(وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) (يوسف: ٢٣)

فبتأملنا في هذه الآية نجد كيف قوبلت دواعي الغواية الثلاث (المراودة، غلق الباب، الدعوة المباشرة) بدواعي العفاف الثلاثة (الاستعاذة بالله، الوعي بإحسان الله لمثواه، التأكيد

(27) محمد رجب البيومي، البيان القرآني، القاهرة، مجمع البحوث الإسلامية، سلسلة البحوث الإسلامية (٣١)، ١٩٧١، ص ٣٢.

(28) المرجع السابق، ص ٤٠، ٤٦.

على عدم فلاح الظالمين) ...مقابلة صورت من القصص الممتع جدالا عنيفا بين "جند الرحمن" و "جند الشيطان"، ووضعتهما أما العقل المنصف في كفتي ميزان واحد!

وهكذا نجد القرآن كله مزيجا حلوا سائغا يخفف على النفوس أن تجرع الأدلة العقلية، ويرفه عن العقول باللفتات العاطفية [29].

٦- و "السخرية" أسلوب آخر من أساليب القرآن الكريم، وهى سلاح يوجهه الساخر نحو الشخص الذي يسخر منه أو الموضوع الذي يوجه إليه بالسخرية، وهذا السلاح مصوغ في أسلوب قد تشتد حدته وقد تلين، ولكنه في كل الأحوال محاط بهذا الغلاف المحبب إلى النفوس، وهو غلاف الفكاهة، أو التصوير الطريف الذي يجد طريقه إلى القلوب في يسر وسهولة [30].

وسخرية القرآن الموجهة إلى أعداء الله إنما هي تحقير واستهزاء واستخفاف بهم، إنها تلاحق هؤلاء الأعداء في كل موقع، فيحط القرآن من قدرهم حطا مزريا من شأنه أن يحطم قوتهم المعنوية، فحينما يكون أعداء الله في موقع العقيدة مثلا، فإن سخرية القرآن تصورهم في صورة مزرية متنوعة التحقير، تنصب أساسا على الاستهزاء بعقولهم وأفكارهم. وإذا كانت أساليب القرآن في بعض ألوانه يجعل من بعض أعداء العقيدة أعداء تحاورهم وترد على أفكارهم، فإن أسلوب السخرية في القرآن لا يسمح لمن توجه إليهم بأن يرتقوا إلى درجة العداء، بل ولا إلى درجة الآدمية في بعض الأحيان [31]، من ذلك:

(وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ اللّهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) (البقرة: ١٤، ١٥)

(أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً) (الفرقان: ٤٤)

٧- ولم ينهج القرآن منهج الكتب المؤلفة التي تذكر الجوانب المتعلقة بمسألة واحدة في مكان واحد ثم لا تعود إليه إلا بقدر ما تدعو إليه المناسبة، وإنما فرق الآيات تفريقا وكأنه في ذلك أشبه شئ ببستان فرقت ثماره وأزهاره في جميع نواحيه حتى يأخذ الإنسان أنى وجد فيه، ما ينفعه وما يشتهى من ألوان مختلفة وأزهار متباينة، وثمار يعاون بعضها بعضا في الروح العام

(29) محمد على الصابوني، التبيان في علوم القرآن، د.ن، ١٩٨٠، ص ١١٠.

(30) عبد الحليم الحفني: التصوير الساخر في القرآن الكريم، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥، ص ١١.

(31) المرجع السابق، ص ١٨.

الذي يقصد، وهو روح التغذية بالنافع والهداية إلى الخير.ولهذه الطريقة إيحاء خاص، هو أن جميع ما في القرآن الكريم وإن اختلفت أماكنه، وتعددت سوره وأحكامه وأفكاره ونظرياته، فهو وحدة عامة لا يصح تفريقه في العمل، ولا الأخذ ببعضه دون بعضه، وكأنه وقد سلك هذا المسلك يقول للإنسان وهو يحدثه عن شئون الأسرة مثلا: لا تلهك أسرتك وشئونها عن مراقبة الله فيما يجب له من صلاة وخشوع. ولا ريب أن لمثل هذا الإيحاء تأثيرا في المراقبة العامة وعدم الاشتغال بشأن عن شأن، فيكفل للسلوك تهذيبه، وللعقل إدراكه، وللجسد صلاحه، وللمجتمع تماسكه وتطوره.

وقد نبه "الخطيب" إلى ما يؤدى إليه تكرار بعض الجمل عن قصد، فالهدف من هذا: إيقاظ المشاعر، وإلفات العقول بهذا الخروج عن المألوف من الخطاب، وذلك لما يقتضيه الموقف من يقظة ووعى، وحذر من أن يفلت من بين يدي الإنسان ما ينبغي أن يلقى به هذا الموقف من استعداد نفسي وعقلي، حتى ينتفع بما فيه من عبرة وعظة، ولو جاء عرض هذا الموقف بأسلوب مألوف، فلربما غفل عنه كثير من الناس، ولربما التفت إليه من التفت منهم بنفس حائرة وعقل شارد (32).

وسورة الرحمن التي تكرر فيها لفظ "فبأي آلاء ربكما تكذبان"، معرض كامل متكامل لنعم الله، ولقدرته ورحمته، ولجلاله وعظمته، فإذا طوف بالإنسان في هذا المعرض، و لم يكن معه الدليل الذي يشير إليه كل ما ضم عليه هذا المعرض من خير، وينبهه إلى ما ينبغي أن يتزود به من هذا الخير، فلربما طاف ما طاف، ثم خرج صفر اليدين، لم يحمل من المعروضات إلا صورا وخيالات لا تلبث أن تزول.

فكأن قوله تعالى: (فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) هو الدليل الذي يصحب قارئ السورة أو سامعها من أولها إلى آخرها، كلما عرضت آية من آيات الله، أو تجلت نعمة من نعمه طلع عليه هذا الدليل يقول له هذا القرآن: (فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)، دون أن يتغير وجهه أو صوته، حتى يكون ذلك آلف لقارئ السورة أو سامعها، فإنه طوال هذه الرحلة لا يتغير عليه وجه الدليل ولا صوته، وفى ذلك ما فيه من تأثير نفسي واطمئنان قلبي، لا يجده المرء لو اطلع عليه في كل خطوة من رحلته وجه جديد (33).

٨- واقعية التصوير، فالتصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور،

(32) عبد الكريم الخطيب: القرآن، نظمه، ترتيبه، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٢، ص ١٣١.
(33) المرجع السابق، ص ١٣٣.

وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقى بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية، فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر، فيرونها شاخصة حاضرة، فيها الحياة، وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استعدت لها كل عناصر التخييل، فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظارة، وحتى ينقلهم نقلا إلى مسرح الحوادث الأولى الذي وقعت فيه أو ستقع حيث تتوالى المناظر، وتتجدد الحركات، وينسى المستمع أن هذا كلام يتلى، ومثل يضرب، ويتخيل أنه منظر يعرض وحادث يقع [34].

ومن الأمثلة على التصوير القرآني، أن الله عز وجل، قرر أن من سننه في الكون أن يعرض الأمم للمصائب والمحن، فإن لم ينتبهوا بذلك للخضوع والتوبة والتضرع إلى الله، غمسهم الله تعالى في أصناف من الملذات، حتى إذا فرحوا بذلك واستغرقوا في لهوهم وانشغالهم عن الله أهلكهم الله على حين غرة،فقال في ذلك:

(فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ) (الأنعام: ٤٤)

فانظر إلى قوله: (فتحنا عليهم أبواب كل شئ)، لكأن أسباب النعيم والترف واللذائذ ممتلئة في مخازن من وراء أبواب، فما هو إلا أن فتحت هذه الأبواب حتى اندلقت عليهم من كل جانب ومن كل نوع. ثم تأمل في قوله: (أخذناهم)، وأي تصوير لضآلة شأنهم ونسيانهم أنفسهم أبلغ وأروع من هذه الكلمة: أخذناهم! [35]

ثم انظر كيف يتقارب الزمن الطويل متحركا متنقلا من مشهد إلى آخر في هذه الآية، وذلك بوحي وتصوير تتابع هذه الأحرف والكلمات: (فلما..حتى إذا..بغتة..فإذا هم..) مشهد من وراء آخر، ومرحلة تلي ما قبلها، قد تكون الفترة بينهما طويلة، ولكن التعبير القرآني يقارب ما بين هذه المراحل في بضع كلمات، ويصورها في ذهن القارئ،وكأنها تاريخ سريع يمر من أمامه.

وعلماء التربية دائما ما يشددون على أهمية ربط مادة التعليم بمعطيات البيئة والثقافة، وهذا ما نجده متوافرا في تصوير القرآن، فما يصوره يتفق مع البيئة التي يعيش فيها العربي، تستمد منها، وتصدر عنها، وتعايشها، فالجمال الصفر، والعصف المأكول، وحبل المسد، والسراب

(34) سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٦، ص٣٢.

(35) محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن، ص ١٧٧.

الخادع بالحقيقة، والعهن المنفوش، والرماد تذروه الرياح، والحمر تفر من قسورة ...كل ذلك منتزع من بيئة العربي، وهى عناصر التشبيه ومسائل للتصوير تعين على التأثير والتوضيح، وتعمل عليها في حس العربي ووجدانه [36].

ويعمد الأسلوب القرآني أن يرسم الحالات النفسية كأنها نموذج واضح للعيان [37]، فإذا أراد أن يبين أن الإنسان لا يعرف ربه إلا في ساعة الضيق حتى إذا جاءه الفرج نسى ربه، لم يقل ذلك في كلمات، وإنما في صورة مشاهدة ملموسة، قال سبحانه:

(هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ...) (يونس: ٢٢، ٢٣).

ولعلنا بعد التوقف عند عدد من أساسيات التعامل التربوي مع القرآن الكريم، يمكن أن نمضي مع القرآن بحثا عن الموقف القرآني من بعض القضايا والمسائل التي تشكل بنية أساسية للتربية الإسلامية

ثانيا - قضايا تربوية

ليس هناك من هو أقدر من الله، خالق كل شئ، على تقديم الهداية الكاملة للبشر، وليس هناك منهج واحد غير المنهج الإلهي يستطيع أن ينهض بحاجات النفوس البشرية ويفي بمطالبها ويغذى عواطفها ومشاعرها، ويتابع تطورها ونموها، ويستوعب قضاياها ويلاحق أزمانها ويلائمها في تطورها الصاعد، ويقودها على طريق الكمال بتؤدة ورفق، وليس هناك كالمنهج الإلهي يفي بذلك، إذ هو المنهج الذي ارتضاه الله عز وجل وجعل فيه الشفاء من الأسقام والعلاج من الأوهام [38].

---

(36) توفيق محمد سبع، واقعية المنهج القرآني، القاهرة، مجمع البحوث الإسلامية، ١٩٧٣، ص ٤٤٠.

(37) عبد الله شحاتة: علوم التفسير، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المكتبة الثقافية، ١٩٧٥، ص ٢٠٠.

(38) توفيق محمد سبع، نفوس ودروس في إطار التصوير القرآني، القاهرة، مجمع البحوث الإسلامية، ١٩٧١، ج١، ٧٧.

إن النفوس – وهي من صنع الله – لا يمكن أن تعالج إلا بعلاجه، ولا أن تروى إلا من نبعه (...هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ...) (النجم: ٣٢)

ولأن المربي هو الخالق، سبحانه وتعالى، استخدم وسيلة تجعل الإنسان، موضوع التربية في حالة وسطى بين الخوف من عذاب الله، ورجاء رحمته وعفوه، بحيث لا يسيطر عليه من الرهبة والخوف ما يجعله ييأس من عفوه، فيستمر في غيه، على طريق الانحراف، ظنا منه بألا فائدة من الحذر والاستقامة، وحتى لا يمتلئ قلبه أملا بمعاني الرحمة والعفو وحدها، فلا يجد بذلك رادعا يكبح اندفاعه إلى المعاصي، وتجلت هذه الوسيلة في مظهرين [39]:

أ – أن يصف من كفر وأشرك بأدنى ما يمكن من صفات تحط من شأنهم وتعرى سوءاتهم، فإذا ما اطلع الإنسان على مثل هذا، فلربما حمد الله على أنه ليس من هؤلاء، و لم يصل إلى ما وصلوا إليه من مستويات السوء والانحراف:

(يَتَسَاءلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ) (المدثر: ٤٠-٤٦)

فنحن حين نتأمل هذه الأوصاف، من المفروض أن نتجه بالشكر والحمد لله أننا لسنا من هؤلاء، مهما كنا مخطئين ومقصرين.

والأمر غير ذلك بالنسبة للمؤمنين الذين يحظون بالتكريم والمديح، مما يجعل المتأمل في هذا راغبا في أن يتشبه، ويقارن دائما بين ما يفعله وما فعله هؤلاء الذين حظوا برضا الله عز وجل:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ...) (الفرقان: ٦٣–٦٥)

فالقارئ لهذه الأوصاف يمكن أن يشعر بضآلة ما يفعل إذا قيس بها، فيدفعه هذا الشعور بالسعي بأقصى ما يستطيع كي يكون مستحقا لمثلها.

ب – أننا نلاحظ أن آيات القرآن التي تصف الجنة ونعيمها، وما أعد للمؤمنين من النعم، يأتي بعدها مباشرة تصوير للنار وعذابها، وما أعد الله للكافرين من صنوف العقاب. كذلك فمع الآيات القرآنية التي تصف المحن وصور الابتلاء، إلا ونجد معها كذلك آيات تصف

(39) محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن، ص ٢١٢.

الطرف الآخر، فيجد الإنسان دائما أمامه الطرفين معا: إما استقامة الطريق وما يتبعه من رضا الله والظفر بما لا يعد ولا يحصى من مظاهر إثابته، أو الانحراف السلوكي والفكري، وما يجره من سوء المآل وقسوة التعذيب:

(يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ) (ق: ٣٠-٣٢)

(إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلاَلٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِؤُونَ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ سَلاَمٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ...) (يس: ٥٥-٦٠)

ومن العسير بطبيعة الحال أن نحصى في الفصل الحالي القضايا التربوية كافة، التي تضمنها القرآن الكريم، فهو مائدة تربية ضخمة، متنوعة العناصر الغذائية، ثرية، دسمة، ويكفى أن نسوق أمثلة منها كنماذج لكيفية الاعتماد على القرآن الكريم في استنباط آراء واتجاهات تؤسس لتربية إسلامية:

١ - النهـــج العقلي:

فمما يؤسف له حقا أن كلمتي "العقل" و "الدين" يرددهما البعض من مقرونتين إحداهما إلى الأخرى، كخصمين عنيدين، وكعدوين لدودين، فيقول – مثلا – هذا ما يدعو إليه الدين، ولكن العقل لا يقره ولا يقبله، بل يأباه ويرفضه! ويقولون: هذا ما يحتمه العقل، ولكن الدين على خلافه! وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على أن ليس في نفوس هؤلاء وغيرهم ممن يرددون نفس المقولة، معان محددة واضحة [40].

والخطأ الأساسي في هذه القضية هي وضع الدين مقابل العقل، كما يوضع الإيمان مقابل العلم، وكأنهما نقيضان لا يمكن أن يجتمعا في الإنسان إلا من قبيل تصادم الأضداد، وذلك ما ترفضه العقيدة الإسلامية التي حسمت الخصومة بين الدين والعقل، إذ هما عنصران جوهريان في الإنسان يتلازمان ولا يتناقضان [41].

ولعل في هذا ما يضاف إلى العديد من المبررات والبراهين على "حجية القرآن التربوية"، ذلك أن الإنسان إذا كان هو موضوع التربية، فإن قيمة المصدر التربوي يمكن أن تقاس بمدى

(40) سليمان دنيا: الدين والعقل، القاهرة، المكتب الفني للنشر، ١٩٥٩، ص ٥.

(41) عائشة عبد الرحمن، الشخصية الإسلامية، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٣، ص ١٤٥.

استثارته للتفكير واستثمار العقل وقواه في التعامل مع قوى الكون والمجتمع المختلفة، فالعقل هو ميزة الإنسان البشرى على الحيوان العجمي، وبه صار الإنسان أهلا للخلافة عن الله عز وجل. والعقل أصله الإمساك والاستمساك، وهو لغة المنع، من عقل البعير إذا منعته بالعقل، وسمى بذلك لمنعه صاحبه من العدول عن سواء السبيل "ويقال للقوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة عقل" (42).

ومن أهم ما نلفت إليه الانتباه في أهمية العقل التربوية أن الإنسان يميل إلى التأمل والتفكير مهما ضعفت ثقافته وقلت خبرته، فالطفل الصغير يحاول أن يعلل ما يشهد، والهمجي المتوحش يفكر في أسباب ما يحدث، وإن كان تفكيرهما مما لا يسير على طريق صحيح، فإن كل إنسان، كائنا ما كان، فيلسوف صغير يجب أن يكون له فهمه الخالص وتفكيره الذاتي، لذلك كان الأسلوب البليغ في أرقى مجاليه يحمل طابع الفكر الرصين لتصغى إليه الإنسانية المفكرة بطبيعتها الأصيلة، وما خلدت روائع الأدب في شتى العصور إلا بما تحمل من أفكار جيدة قوية، صيغت في صور جميلة مطبوعة، ولو بحثنا عن الآثار الباهرة الخالدة، وجدنا أن الخلود كان نصيبها الدائم لما تحصله من ومضات تضئ العقل، وهزات تزلزل الإحساس. والقرآن الكريم، كتاب البشرية الخالد، قد بلغ قمة تأثيره بما أتاحه من النظر الفسيح في ملكوت السموات والأرض، وبما هدى إليه من عناصر الصدق والجمال والحق التي تنعقد على الفطرة الإنسانية الخالصة (43).

ويحفل القرآن الكريم بالعديد من النماذج والمشاهد التي تبين للمربى كيف يستخدم المنهج العقلي في المناقشة والحوار، من أجل نزع الخاطئ من الأفكار الذي يزيف الحق، وزرع الصالح الصادق منها المصور للحق، ولنتوقف قليلا أمام نموذج من هذه النماذج في الحجاج العقلي:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِـــي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِـــي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (البقرة: ٢٥٨)

فها هنا يقف صاحب العقل الصافي النير، الذي يملك دليلا قويا على عظم قدرة الله، أمام صاحب عقل مغلق متحجر لا يبصر الحق الذي يسطع أمام الأعين، فيشير إبراهيم إلى أن الله هو الذي يحيى ويميت، لكن صاحب العقل المغلق المتحجر يعشعش في دماغه مفهوم مغلوط

(42) محمد إبراهيم الشافعي: المسئولية والجزاء في القرآن، د.ن، القاهرة، ١٩٨٢، ص ٢٢٠.

(43) محمد رجب البيومي، البيان القرآني، ص ٢٥٤.

للإحياء والإماتة، فبينما يعي إبراهيم أن الإحياء هو بث الحياة وإبداعها، مما لا يستطيعه إلا المولى سبحانه وتعالى، يفهم هذا المتجبر أن الإحياء هو إتاحة الفرصة لهذا أو ذاك بأن يستمر في الحياة بحيث لا يتعرض لحكم بالإعدام والقتل، وأن الإماتة هي الإعدام والقتل.

فلما تبين لإبراهيم عليه السلام بلادة عقل هذا الجهول وجمود ذهنه، وأنه يعجز عن فهم المعقولات الخالصة، لأنه منغمس في أدران المادة التي تضع بينه وبين الحقائق العقلية المجردة حجابا كثيفا، كان طبيعيا أن ينتقل من هذا الدليل إلى دليل آخر يكون في مستوى إدراك هذا المتجبر الجهول [44]، فالاحتجاج بالإحياء والإماتة قائم صادق، والانتقال عنه إنما كان لأمرين [45]:

الأول بيان موطن دلالته من طريق القياس على فعل لا يشتبه في حصوله من القادر المختار، وأن أحدا سواه لا يقدر عليه، وفى ذلك بيان لخطأ فهم الإحياء والإماتة عند هذا الكافر الجاهل، في قوله: (أنا أحيى وأميت)، وفيه بيان لمعنى الإحياء والإماتة اللذين هما من خصائص الألوهية الحقة في مقام الاستدلال على وجود الله وقدرته.

الثاني، إقامة دليل آخر في صورة تلائم مدارك الخصم، ولا يملك له ردا، قال إبراهيم: (فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب)، والإتيان بالشمس من المشرق فعل في كائن عظيم يرى ويحس وهو فعل إبداعي، لا يقدر عليه إلا الرب الإله الحق القادر المختار، ونظيره، وهو الإتيان بالشمس من المغرب، وهو أيضا — لو كان — فعل إبداعي لا يقدر عليه إلا الرب الإله الحق القادر المختار [46].

من هنا كان حتما على العقل المسلم أن يخضع بصفة مستمرة لعمليات تدريب لقواه العقلية وطاقاته الفكرية، مما تؤكده آيات قرآنية متعددة، مثل:

١- آيات تدعو إلى النظر، فلقد دعا القرآن الكريم إلى النظر في مائة وتسع وعشرين آية، جاءت على معان مختلفة، وما يهمنا هنا هو ذلك النظر الذي يقوم على الفحص والتأمل والروية والتبصر بحقائق الكون [47]، من مثل قوله سبحانه:

---

(44) محمد عرجون، القرآن العظيم، هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٦٦، ص ٥٠.

(45) المرجع السابق، ص ٥١.

(46) المرجع السابق، ص ٥٢.

(47) فاطمة إسماعيل محمد إسماعيل: القرآن والنظر العقلي، هيرندن، فيرجينيا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٣، ص ٦٦.

(فَلْيَنظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ) (عبس: ٢٤)، (فَلْيَنظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ) (الطارق: ٥)

٢- آيات تدعو إلى التبصر كوظيفة من الوظائف العقلية، وهى توضح دعوة القرآن الكريم للنظر العقلي، وقد وردت في مائة وثمان وأربعين آية [48]، مثل قوله سبحانه وتعالى:

(وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ) (الذاريات: ٢١)

٣- آيات تدعو إلى التدبر، وعددها أربعة آيات، وكلها تتصل بتدبر القرآن، فمن ذلك قوله:

(كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ) (ص: ٢٩)

٤- آيات تدعو إلى التفكير، وهى ست عشرة آية تناولت التفكير في مظاهر الوجود المختلفة، سواء الآيات الكونية، أو آيات الأنفس، أو الدلائل المؤكدة للتوحيد، وما تتسم به رسالة محمد r من صدق [49]، مثل قوله عز وجل:

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّـــرُونَ) (النحل: ١٠، ١١)

٥- آيات تدعو إلى الاعتبار، وذلك في سبع آيات نذكر منها:

(هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ) الحشر/٢

٦- آيات تدعو إلى "التفقه"، إذ وردت مادة "فقه" في القرآن في نحو عشرين آية، نذكر منها على سبيل المثال قوله عز وجل:

(...انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ) (الأنعام: ٦٥)

٧- آيات تدعو إلى التذكر،، ومن ذلك قوله سبحانه:

(...وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) (البقرة: ٢٢١)

وفى كل ما ورد مما يشير إلى ضرورة النهج في التفكير نهجا عقليا، نستطيع أن نلاحظ عددا من الأمور [50]:

---

(48) المرجع السابق، ص ٦٧.

(49) المرجع السابق، ص ٦٨.

(50) محمد أحمد خلف الله، الأسس القرآنية للتقدم، القاهرة، كتاب الأهالي، ١٩٨٤،، ص ٤٧.

أولا – أن الله حين طلب إلى العقل النظر إلى الكون للتعرف عليه، إنما كان ذلك من إيحاء أو إشارة بأن العقل قد وهبه الخالق عز وجل من القدرات والإمكانات ما يعينه بالفعل على أن يدرك الكثير مما في هذا الكون.

ثانيا – أن العقل البشرى لابد أن يصل إلى مجمل مقصود الله، الخالق، من هذا الكون، من حيث دلالته على وحدانية الله وقدرته التي لا تحد، وكذلك فلابد أن يصل إلى العديد من السنن التي أودعها الخالق لتسيير ظواهر الكون المختلفة، وأن إدراك هذه السنن هو الطريق إلى استثمار مفردات الكون وتحقيق مقصود المولى من تسخيرها للإنسان.

ثالثا – أن من المستحيل على العقل البشرى أن يدرك ما في الكون، وسننه دفعة واحدة، فكما أن الإنسان نفسه يخضع لسنة النمو والتطور، فكذلك معرفته بالكون، هي في نمو وتطور، تنمو بها حياته وتتطور وتتقدم.

ونحن إذا راجعنا كتب الفقه المختلفة سوف نجد أن "حفظ العقل" هو أحد المقاصد الخمسة للشريعة الإسلامية [51]، ويكتفي الأصوليون القدامى بالإشارة إلى تحريم شرب الخمر، ويزيد بعضهم وجوب طلب العلم الديني الضروري لأداء العبادات المفروضة، وقد يزيد بعضهم تعلم الحساب حتى يتمكن من معرفة المواريث والزكاة، وقد زاد القرضاوي فريضة تعلم القراءة والكتابة [52]، وتعلم الفلك حتى نعرف مواقيت الصلاة والصوم.

ومن هنا فإن ربط العلوم الواجب تعلمها بأمور العبادات إنما منشؤه تلك النظرة الضيقة للدين التي تحصره في العبادات، أما إذا فهمنا الدين في شموله، فسيكون طبيعيا أن نضع الأمر في مكانه الطبيعي ضمن نظام تعليمي متكامل، تكون مرحلته الأولى شاملة – إلى جانب دراسة العقيدة والعبادات – للغة العربية (بعلومها الأساسية) والرياضيات (الحساب والجبر والهندسة)، والتاريخ، والجغرافيا، والفيزياء، والكيمياء، ومبادئ العلوم الإسلامية (القرآن والسنة والسيرة)، والفقه بصورة مبسطة شاملة، ومبادئ اللغة الإنجليزية، والحساب الآلي).

هذه المرحلة الأولى تمثل القدر (الضروري) من المعرفة الواجب تعميمه في عصرنا الحالي فرضا عينيا على الجميع، رجالا ونساء وأطفالا،ويمثل بالنسبة للأطفال المرحلة الأولى الأساسية من التعليم العام، والتي تختلف مدتها وفقا لدرجة التطور الحضاري في المجتمع، إذ قد تصل إلى ست سنوات في مجتمع، وأكثر من ذلك في مجتمع آخر.

---

(51) جمال الدين عطية، نحو تفعيل مقاصد الشريعة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دمشق، دار الفكر، ٢٠٠١، ص ٨٥.

(52) يوسف القرضاوي: تيسير الفقه (فقه العلم)، القاهرة، مكتبة وهبة، ١٩٩٩، ص ١٩٤.

والمنطق الذي يقوم عليه القول بضرورة النظر إلى العلم كأساس لابد منه عند النظر إلى مقصد حفظ العقل، أن حفظ العقل ليس قاصرا على مصلحة الفرد بل يمتد لمصلحة الجماعة، ففي الأول يتحقق اكتساب المعارف والمهارات اللازمة لعمارة الأرض وكسب الرزق في نواحي التخصص المهني والحرفي، وفي الثاني تعمل الأمة على الوصول إلى الاكتفاء الذاتي في كل مجالات الحياة الضرورية والحاجية والتحسينية، وتنطلق الطاقات بهذا الدافع الديني، فمن الناس من تقف إمكاناته الذهنية عند حد معين، ومنهم من تسمح إمكاناته بالرقى في مدارج العلم والاجتهاد الإبداعي في شتى المجالات (53).

٢ - إنسانية التوجـــه التربوي:

قد يبادر البعض إلى القول بأن هذه الصبغة للتوجه التربوي في القرآن الكريم، هي جزء أصيل من العملية التربوية نفسها، على أساس أن المعروف هو أن موضوعها هو الإنسان، كما سبق أن بينا.

وإذا كان هذا صحيحا إلى حد كبير، لكن لا ينبغي أن يغيب عن الذهن أن الكثير من النظريات التربوية ونظم التعليم في العالم قد أسست وبنيت على مفهوم للإنسان يحصره في معنى "الإنسان الوطني" المحدود برقعة جغرافية بعينها ذات حدود سياسية معترف بها، فالتربية، على سبيل المثال في هذه الدولة أو تلك، تنحصر اهتماماتها التربوية في "المواطن" الذي يحمل جنسيتها.

ويروى لنا تاريخ التربية الكثير عن مجتمعات متعددة كانت تخصص التربية فيها على "الأحرار" من المواطنين، حيث كان نظام العبيد هو السائد والشائع في مختلف بقاع العالم، وأشهر النماذج لذلك التربية في بلاد الإغريق، سواء كانت اسبرطة أو أثينا، على الرغم من شهرة الثانية بأنها كانت تربية "ديموقراطية".

وليس مجهولا لدى الجميع ما تقوم عليه التربية اليهودية من عنصرية مفرطة، سواء في نصوصها الدينية أو في أساليب تربيتها طوال العصور المختلفة، أو في الكيان الصهيوني القائم الآن في دولة إسرائيل.

بل إن هناك موجة مع الأسف الشديد – مع افتراض حسن النوايا - اجتاحت دولا عربية إسلامية تدعو إلى المحلية الضيقة تحت شعارات مثل: "التعمين"، و "التكويت، و "السعودة" ... إلى آخره، بدافع تكريس المصلحة القطرية وحدها كمرشد وموجه للعملية التربوية

(53) جمال الدين عطية، ص ٨٦.

ومناهج التعليم ونظمه، وتحصر معظم النظم الكثير من الخدمات التعليمية، بل والقبول في بعض المعاهد التعليمية على أبنائها وحدهم.

كذلك هناك من الاتجاهات ما عرف "بعنصريته" كما رأينا في ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية من حيث أنها نظرت إلى الإنسان الألماني وحده، أو الإنسان الإيطالي وحده على اعتبار أنه هو الإنسان الجدير بالنظر والاعتبار، أما غيره، فليس لهم مكان الصدارة، بل العبيد. والمنطق نفسه يحكم فلسفة التعليم في دولة العدو الصهيوني.

لكن تربية الإسلام، كما تتجلى في كتاب الله عز وجل، لها معيار آخر في المواطنة، لا يقوم على العرقية أو الجنسية أو الموقع الجغرافي، أو الوضع الاجتماعي أو المستوى الاقتصادي، وإنما الجميع في مستوى واحد من الكرامة والحرية الإنسانية، ولا يتفاضلون بعد ذلك إلا بما يحرزه كل منهم من السبق بسعيه الخاص في ميدان الجهاد الإنساني المفيد المشرف:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات: ١٣).

والتأسيس القرآني لهذه النزعة الإنسانية يتجلى أول ما يتجلى في جوهر العقيدة الإسلامية نفسه الذي تلخصه تلك العبارة التي ينطق بها كل مسلم عدة مرات كل يوم، عندما يصلى، ألا وهى "الحمد لله رب العالمين"، فالله ليس إلها لقوم دون قوم، ولا لبلد دون آخر، ولا لعصر غير العصر، وإنما هو "رب العالمين" أيا من كانوا، وأينما كانوا، ووقتما وجدوا.

فقد أوضح سبحانه وتعالى أنه بعث محمدا ﷺ رسولا إلى البشر كلهم، في بقاع الأرض، وفى كل الأزمنة التالية، دون نظرة خاصة في ذلك إلى الذين بعث من بينهم أو البيئة التي ظهر فيها، فقال:

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) (الفرقان: ١)،وقال:

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) (الأعراف: ١٥٨)، وقال:

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) (سبأ: ٢٨)

وبالتالي فلابد من أن تتوجه التربية وترتبط برب العالمين، وهى إذ ترتبط برب العالمين، ينبغي أن تكون موجهة لمصلحة جميع خلقه من البشر، طالما ساروا على الطريق الذي يوصل إلى رضاه وتحقيق مقاصد الشرع.

وأبرز ما يمكن الاستشهاد به هو تلك الآية الأولى من سورة النساء التي سبق أن أشرنا إليها، فهي تبين أن المنطلق لتقرير كل الأحكام إنما هو الرحم الإنسانية العامة، ففي سبيلها

ستتلى الأحكام التالية، وعلى ضوئها ينبغي أن تفهم حقيقة المقررات التشريعية التي تفيض بها السورة [54].

وليس الخلق النبيل في القرآن هو ذلك السلوك الذي يتفق مع ما تواضعت عليه البيئة أو الجماعة المعينة من المعايير السلوكية والخلقية المستحسنة، كما هي النظرة لدى عامة الذين بحثوا من عند أنفسهم في مقومات الفضيلة والأخلاق، وإنما الأخلاق والفضيلة في القرآن، مجموعة الاعتبارات والمناهج السلوكية التي تتلاءم مع الفطرة الإنسانية الصافية من جانب، وتساعد في إرساء قواعد السعادة الإنسانية للفرد والجماعة من جانب آخر، ومن ثم فأنت لا تجد في هذه المناهج السلوكية قابلية للاختلاف والتغير من بيئة وأخرى، لأنها لم تنشأ من أعراف بيئة، ولكنها انبثقت عن الفكرة الإنسانية الشاملة [55].

ولقد أفاض القرآن الكريم الحديث عن خلق الإنسان الأول آدم عليه السلام في معرض الوصف والإخبار، وفى معرض المنة والتفضيل والاعتبار، وهو الأمر الذي لم يحظ به أي مخلوق آخر دلالة على علو الشأن وجلالة القدر، فإن الاحتفال بميلاد المولود، وإعادة ذكراه باستمرار علامة على رفعة قيمته الذاتية [56].

ومع هذا الاحتفال القرآني بخلق الإنسان من بين سائر المخلوقات، فإن هذا الخلق جاء متميزا لخصوصية هامة تمثلت في العناية الإلهية المباشرة به، حيث جاء كثير من نصوص القرآن والحديث تصور الخلق الإلهي للإنسان بصورة تبدو فيها العناية المخصوصة من الله تعالى لهذا المخلوق في مباشرة خلقه، وفى تصويره وتكوينه، حيث جاء كل ذلك على معنى من الحدب والإيثار والقربى لا نجد له نظيرا في سائر المخلوقات، ومن ذلك ما جاء في قوله سبحانه وتعالى:

(قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ) (ص: ٧٥)

فالآية تشير إلى أن الإنسان خلق بيدي الله علامة على التشريف والتعظيم له، ومن المعروف أن العظيم الشأن المقدر للأمور والمسيطر عليها لا يتولى بيديه إلا الأمر الكبير القدر

(54) البوطي، من روائع القرآن، ص ٢١٨.

(55) المرجع السابق، ٢٢٠.

(56) عبد المجيد النجار، عقيدة تكريم الإنسان وأثرها التربوي، مجلة المسلم المعاصر، العددان، ٧٣-٧٤، ص ١١٤.

الرفيع القيمة، وهذا المعنى متحقق في الآية إذا حملت على التأويل كما هو الأرجح في ميزان تنزيه الله عن مشابهة الخلق بالأعضاء، حيث يحمل باليدين على العناية الشديدة.

ومظهر آخر من مظاهر النزعة الإنسانية في القرآن الكريم، ما ورد من قوله:

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ ...) (البقرة: ٣٤)

فهذا تكريم في أعلى صورة لهذا المخلوق الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء، ولكنه وهب من الأسرار ما يرفعه على الملائكة، لقد وهب سر المعرفة، كما وهب الإرادة المستقلة التي تختار الطريق [57]، ومن هنا فإن أجل تكريم كرم الله به الإنسان هو أنه سبحانه منحه أدوات التعلم والتعرف على حقائق الأمور، وصفات الأشياء وخصائصها، وذلك ليتابع في حياته بحثه العلمي السليم ليكتشف أسرار هذا الكون، وحتى يحسن الانتفاع مما بث الله له في هذا الكون من قوى وخيرات. أما الذين يعطلون أدوات المعرفة التي وهبهم الله إياها أو يستخدمونها في حدود ظواهر الحياة الدنيا فقط، ثم لا ينتقلون من ذلك إلى معرفة خالقهم يؤمنون به فأحرى بهم أن يقال عنهم: صم بكم عمى فهم لا يعقلون، وذلك لأنهم قد عطلوا هذه الأدوات التي منحهم الله إياها عما خلقت من أجله، فهم وفاقدوها سواء، أولئك شر الدواب عند الله [58].

ويمكن أن نستخلص من آيات سورة البقرة في خلافة آدم في الأرض وأمر الملائكة بالسجود له أمرين [59]:

أولهما: أن تكريم الإنسان الأول، الذي تمثل في الأمر الإلهي بأن يسجد الملائكة له، كان التبرير الظاهر له في سياق الآية هو ما اختص به آدم من علم يختلف عن علم الملائكة الذي لا مجال فيه لميزة الكسب عن طريق التعلم:

(...قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ...) (البقرة: ٣٢)

الثاني، أن الخلافة في الأرض اقتضاها ما يحتمل النوع الآدمي من أمانة إنسانيته ومسئولية عمله وكسبه، وتبعة الابتلاء التي أعفى منها الملائكة بالتسخير المطلق.

ومن مظاهر النزعة الإنسانية إقرار العديد من الحقوق التي تحفظ للإنسان كرامته وتفعل طاقاته في تعمير الأرض والعيش عيشة كريمة، مما أفاض فيه كثيرون، ويكفي أن نشير هنا إلى عدد منها، مثل [60]:

---

(57) سيد قطب، في ظلال القرآن، م١، ص ٦٧.

(58) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، أسس الحضارة الإسلامية، مكة المكرمة، د.ت، د.ن، ص ٢٨٩.

(59) عائشة عبد الرحمن، مقال في الإنسان، القاهرة، دار المعارف، ص ٤١.

فالحياة هبة من الله للإنسان، ولا يجوز مصادرتها والقضاء عليها إلا وفق نص ملزم مما شرع الله تعالى، وعليه، لا يحق للفرد نفسه إلغاء حق الحياة بالانتحار أو إلقاء النفس إلى التهلكة، كما لا يجوز للغير، سواء أكان فردا أو جماعة أو دولة، إلغاء هذا الحق، بالقتل أو ما يؤدى إليه، ما لم يرتكب ما يوجب مصادرة هذا الحق بنص شرعي، كالقتل، أو زنى المحصن، أو الخروج على السلطان الشرعي، أو الارتداد عن الإسلام والكفر، إلى غير ذلك من أمور حددها الشرع.

ويتصل بهذا الحق حرمة من حرمات الفرد، وهى حرمة الدم، وهى حرمة مصانة، بكفالة المجتمع والدولة، لا يجوز الاعتداء عليها، سواء بسفك الدم كاملا، أو بالجراحة بأي صورة من صورها، فالقرآن يؤكد أن "الجروح قصاص"، فمن جرح يجرح حكما حتى تصان حرمة الدم.

وحق الأمن تلتقي فيه جميع الحقوق، إذ لا يمكن أن يكون الإنسان حرا كريما، عاملا منتجا مفكرا مبدعا، ما لم يكن آمنا على نفسه وحرمة دمه، آمنا في ماله وما يملك، آمنا على عرضه وكرامة أسرته وأولاده، لذلك فإن من مقتضيات حق الأمن، ألا يظلم الإنسان ويروع ولا يعتدي على أي خصوصية من خصوصياته، فلا يوقف ولا يعتقل ولا يسجن ولا يضطهد ولا يطارد إلا بجرم ارتكبه، محدد شرعا، ويتولى المجتمع، كما تتولى الدولة بمختلف سلطاتها حماية هذا الحق، ولعل أبرز ما يؤكد لنا معنى الأمن أن الله سبحانه وتعالى وهو يعدد نعمه على قريش، كان منها "الأمن" في قوله عز وجل: (لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ) (قريش: ١-٤)

ومن المعروف أن من أبرز مقاصد الشريعة: حفظ النفس، وإذا كان حفظ النفس يكون بتوفير ما يسمى بحق الحياة وحرمة الجسم، وكذلك بتوفير الأمن، فإن مما يكمل هذا المقصد [61]، توفير كفاية النفس مما يحتاجه الجسد من طعام وشراب (والأخذ بالرخص للمضطر) ولباس، ومسكن، ووقاية من الأمراض السارية والمخاطر التي تودي بالنفس كالحريق والغرق والتسمم وحوادث السيارات والآلات والكهرباء والإشعاعات بأنواعها المختلفة، وعلاج ما

(60) أحمد رجب الأسمر: فلسفة التربية الإسلامية، عمان، دار الفرقان، ١٩٩٧، ص ٢٤١.

(61) جمال الدين عطية، ص ١٤٢.

يصيبه من أمراض وحوادث، وهذه كلها من الوسائل التي لا يتم حفظ النفس إلا بها فتأخذ حكم المقصد الضروري.

ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن تحقيق هذا المقصد يقتضي توفير الحرية الشخصية والكرامة للإنسان تحقيقا لمعنى التكريم الذي اختص الله به الإنسان، تمييزا له عن الحيوان الذي يحتاج لحياته كالإنسان إلى الطعام والشراب، ذلك أن الإنسان ليس جسدا ماديا فحسب، ولكنه أيضا كيان معنوي روحي نفسي فحفظه لا يكون إلا بحفظ هذه الجوانب جميعها، فتأخذ حكم المقصد الضروري كذلك [62]. وعندما قدم د.جمال الدين عطية مشروعه الفكري لتفعيل مقاصد الشريعة، فاقترح مجالات أربعا لها بدلا من المقاصد الخمسة المعروفة، كان رابع هذه المجالات: ما يخص الإنسانية [63]، ففي هذا المجال نجد عدة مقاصد، منها:

١- التعارف والتعاون والتكامل، والذي تشير إليه الآية التي أوردناها من قبل من سورة الحجرات، فهي تؤكد أن مقصد التنوع هو التعارف فيما بين الناس، وكذلك التعاون، باعتبار تعدد القدرات والإمكانات والاختلاف بينها، وحتمية أن يكون هناك تكامل بينها.

٢- تحقيق الخلافة العامة للإنسان في الأرض، والتي أشارت إليها الآية (٣٠) من سورة البقرة، والآية ٧٢، من سورة الأحزاب.

فالتصور الذي تتضمنه هاتان الآيتان لرسالة الإنسان ومسئوليته وحريته،قد تختلف الأديان والفلسفات الوضعية في بعض جوانبه وتفاصيله، ولكنه يبقى التصور الوحيد المقبول لتفسير واقع الكون والإنسان والحياة، وهو تصور لا يحط من قدر الإنسان بل يؤكد شرفه وكرامته على باقي المخلوقات [64].

٣- تحقيق السلام العالمي القائم على العدل.

٤- الحماية الدولية لحقوق الإنسان، وذلك من خلال جملة مبادئ، منها على سبيل المثال [65]:

= تحرير الإنسان من العبودية للإنسان حيث هي نتيجة أساسية لعقيدة التوحيد ونفى الشرك بكل صوره.

---

(62) المرجع السابق، ص ١٤٣.

(63) المرجع السابق، ص ١٦٤.

(64) المرجع السابق، ص ١٦٧.

(65) المرجع السابق، ص ١٧٠.

= نصرة المستضعفين في كل مكان، وحماية الحريات والحقوق وفى مقدمتها حرية الفكر والعقيدة، مما اهتم الإسلام به حتى لا تقف النظم الاستبدادية عقبة أمام وصول الدعوة الإسلامية إلى الناس كافة ...وغيرها

٥- نشر دعوة الإسلام، حيث نجد أن المنهج الذي نبه إليه القرآن في هذا الشأن هو الحكمة والموعظة الحسنة والحوار العقلي المنطقي، وعدم إجبار الناس على اعتناق العقيدة.

٣- السياج الخلقي:

في كتاب الله العزيز يقول سبحانه وتعالى:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا) (الشمس: ٧-١٠)

فهذا يؤكد أن الإنسان قد وهب قدرة على أن يكون سوى السلوك، أو العكس، مما كان لابد أن يكون مالكا حرية اختيار بين هذا وبين ذاك، مما يترتب عليه ما سبق أن بيناه من تقرير مبدأ المسئولية الشخصية.

لكن رحمة الله جلت قدرته لم تشأ أن تترك الإنسان هكذا دون توجيه وبغير إرشاد إلى جملة القيم المقدورة له في سلوكه وفى قوله، والتي إذا التزم بها كانت له سياجا يحميه من السقوط في هوة الانحراف السلوكي الذي لا يقف ضرره عليه وحده وإنما يمتد هذا الضرر إلى مجموع الأمة.

هذه المجموعة من القيم هي تلك المبادئ والمعايير الأخلاقية التي تهدى الإنسان إلى ما يجب أن يسلك، وتحذره من أعمال وأقوال أخرى مغايرة تنحرف به عن الصراط المستقيم.

والبنية الخلقية هي واسطة الارتباط الوثيق بين العقيدة والتربية، كما سبق أن أشرنا في الفصل الأول من الكتاب، ذلك أن العقيدة ليست مجرد معارف ومعلومات يختزنها الإنسان في عقله، ذلك أن المطلوب هو "الترجمة السلوكية" لهذه العقيدة، والترجمة السلوكية، تعنى مجموعة القيم الخلقية التي يترسمها الإنسان في سلوكه مع نفسه ومع الناس وقبل هذا وذاك مع المولى سبحانه وتعالى.

وإذا تذكرنا أن أسلافنا كانوا يستخدمون مصطلح "التأديب" لا التربية، وأنهم بهذا يؤكدون على تركز اهتمامهم على "السلوك الفاضل" أدركنا قيمة العمل الأخلاقي بالنسبة للتربية، ومن هنا أيضا كان المصطلح الأكثر شيوعا للمعلم هو "المؤدب"، مشيرين بذلك إلى أن وظيفته لا ينبغي أن تقتصر على "تخزين" المعلومات داخل ذهن طالب العلم فقط وإنما ما لا يقل عن ذلك أهمية أن يهذب سلوكه، ويقوم معوجه، ويرشده إلى الصراط المستقيم.

وميزة إقامة الأخلاق على العقيدة، هي الشعور بقدسية القواعد الأخلاقية الكلية العامة، وذلك يؤدى إلى أمرين [66]:

أولاهما: تعظيم هذه القواعد وإحلالها ومن ثم تكون لها سلطة تتحكم بها في حياة الإنسان وتصرفاته في السر والعلن،

وثانيهما: أن هذه القواعد الأخلاقية تؤثر في الإنسان عمليا من الناحية الإيجابية والسلبية نتيجة تطبيقها أو عدم تطبيقها، فيكون أثر التطبيق الإحساس بالسرور والانشراح في أعماق النفس الإنسانية، ويكون أثر عدم تطبيقها الإحساس بالوخز في الضمير والضيق في الصدر والكآبة في النفس، وذلك بصرف النظر عن ملاحظة الناس لهذه الأفعال أو تلك، لأن إحساس الإنسان بالقدسية يجعل من نفسه رقيبا داخليا على تصرفاته، ولا يرتبط ذلك التطبيق بالقواعد الأخلاقية بالمنفعة المنتظرة عاجلا أو بالمظهر الاجتماعي فحسب، شأن القوانين الوضعية، بل يرتبط إلى جانب ذلك بظاهرة أعمق وهى الإحساس بالواجب وبراحة الضمير، إذ أنه يشعر عندئذ بأنه أرضى ضميره وأرضى كذلك ربه، ومن ثم لابد أن ينال جزاء عمله من ربه وفقا لوعده إياه إن عاجلا أو آجلا.

وفضلا عن ذلك فإن الله ما أمر الملائكة أن تسجد لآدم بمجرد أن خلقه من (طين)، وإنما بعد أن نفخ فيه من (روحه)، فالقيمة إذن في كيان الإنسان لم تنشأ من الوجود الجسدي والأصل المادي، وإنما نشأت حين نفخة الروح بقبضة الطين، فغيرت طبيعتها وتميزت بالمعرفة، والإدراك، والإرادة، والاختيار، ولم يعد فيها ما كان فيها من قبل من صفاقة وعتامة وانطماس [67].

والخير والشر بذلك يصبحان ذوى مفهومين واضحين محددين لا يلتبسان ولا يحار فيهما الإنسان، فالإنسان يكون شريرا حين يحكم الجسد مزاجه المجتمع المترابط، وخيرا حين تحكم الروح هذا المزاج ...

وعلى سبيل المثال، فالجسد يريد أن يأكل ويشرب ويستمتع، وليس هذا (حراما) في ذاته، ولكنه، حين يصير الجسد هو المسيطر ينقلب إلى (فاحشة) لأنه يزيد على القدر السليم المعقول الذي لا يعطى الكيان ولا يفسد (الجمال) الواجب في حياة الإنسان [68]، فما دام

(66) مقداد يالجن، التربية الأخلاقية في الإسلام، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٧٧،ص ١٩٢.

(67) محمد قطب: دراسات في النفس الإنسانية، القاهرة، دار الشروق، ١٩٧٤ ص ٣٣٢.

(68) المرجع السابق، ص ٣٣٣.

الجسد هو المسيطر، فسوف يسعى إلى الطعام إسرافا، وبغير توخ للنظافة والطهارة في اكتسابه، وبغير تحرز من ظلم الآخرين في سبيل الحصول عليه فينشأ عن ذلك الشر.

لكن، حين تحكم الروح هذا الكيان المجتمع المترابط، فإنه يحدث شئ آخر! إن الإنسان في هذه الحالة يأكل ويشرب، ولكن بلا إسراف، فسيطرة الروح تضبط هذا الإسراف وتنظمه، وإن كانت لا تكبته من أساسه، ثم لا يجعل الطعام والشراب هدفا في ذاته، وإنما وسيلة لحفظ الأود، وسيطرة الروح هي التي توقظ الإنسان للهدف من كل عمل يعمله، لأنها هي المنوطة بالوعي والإدراك، ثم يتحرى النظافة والطهارة في طعامه وشرابه. وسيطرة الروح هي التي تحرر من القذارة الحسية والمعنوية، وتختار السلوك النظيف لأنها المنوطة بالاختيار، ثم هو يبعد عن نفسه الأثرة البغيضة فيشرك معه غيره في طعامه وشرابه.وسيطرة الروح هي التي تدفع إلى هذا البذل والإيثار لأنها هي المنوطة "بالحب" الذي يتوجه إلى الغير [69]... وينشأ عن ذلك، الخير ...

ويؤكد القرآن الكريم ويقرر بكل أساليب التقرير وبجميع أنواع التأكيد أن كل إنسان يحمل مسئولية نفسه كاملة عما يقوم به من عمل خير أو شر، وأن الكتاب العزيز ليجعل مسئوليته الشخصية قاعدة كلية ومبدأ عاما يناط به كل تكليف من تكاليف الإسلام وكل فرع من فروع مسئوليته التي حملنا الله تعالى إياها [70].

وتعنى شخصية المسئولية، أنه لا يعاقب أحد بجرم غيره، ولا تقع عليه جريرة أحد سواه، فكل ما ينال المرء من عقاب إنما يكون جزاء له على ما باشره أو تسبب فيه من شر، وكل ما يسبغ عليه من ثواب لا يكون إلا نتيجة لسعيه الشخصي وعمله الفردي الذي باشره أو تسبب فيه، وقد جاءت آيات القرآن تدعم هذا المبدأ وتثبته تثبيتا حتى صار أصلا من أصول الإسلام العامة، بل أثبت القرآن الكريم أنه أصل لكل الرسالات السابقة التي جاءت بالهدى ودين الحق، وذلك ليحققه الله، عز وجل، ويؤصل العدالة التامة الشاملة التي هي هدف الإسلام وغاية جميع الشرائع السماوية [71].

وتطبيقا لهذا المبدأ نجد الأبناء لا ينتفعون بعمل الآباء ولا العكس، إذا كان أحدهما صالحا والآخر طالحا، وإلا لانتفع ابن نوح بصلاح أبيه وهدايته ونبوته، وإنما قطع الله وشائج صلته وأهليته بأبيه:

---

(69) المرجع السابق، ص ٣٣٦.

(70) سعيد إسماعيل على: القرآن الكريم، رؤية تربوية، ص ٢٠٦.

(71) محمد إبراهيم الشافعي، المسئولية والجزاء في القرآن الكريم، ص ٩٥.

(وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) (هود: ٤٥، ٤٦)

فمع سؤال نوح ربه أن يجعل ابنه من أهله لعله ينال شيئا من ثوابه حتى ينجو من العذاب، لم يستجب الله له، وذلك لأنه خالفه في الاعتقاد والعمل والنية، وهو عمل غير صالح، وبذلك أزال الإسلام رواسب الجاهلية وعاداتها من مؤاخذة الرجل بذنب أبيه أو ابنه أو حليفه [72].

ومن هنا محيت خطيئة آدم وقرر القرآن أنها لا تنسحب على ذريته، ذلك أن آدم لم ينقد للخطيئة لخبث في طبيعته، أو سوء في إرادته، وليس يكفى أيضا أن يقال أنه انقاد لإغراء قوى، بل يجب أن نضيف – تبعا للقرآن – أن هذا الإغراء لم يكن في جوهره ذا طابع مادي، فإن جدنا الأول قد خدعته كلمات عدو أقسم له، تأكيدا لكلامه، وزعم أنه ينصحه، فاعتقد بسذاجته أنه حين يأكل الفاكهة المحرمة فربما يصبح نقيا كنقاء الملائكة، خالدا كخلود الإله:

(فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ) (الأعراف: ٢٠، ٢١)

وعلى الرغم من أن آدم كان منذ البداية محصنا ضد المكائد المحتملة من عدوه، فقد نسى الإنسان الأول، وجاءت اللحظة التي لم يجد لنفسه فيها إرادة صامدة:

(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) (طه: ١١٥)

ومع ذلك فهذا النسيان لا يعتبر بالنسبة إليه عذرا مقبولا، كما أن النية الطيبة لا تشفع له كذلك، لأن النسيان لم يكن للأمر في ذاته، بل للهدف منه، وأيا ما كانت الدوافع النبيلة وراء المخالفة، فإنها لا يمكن أن تعفينا من التزام مطلق واضح المعالم والحدود [73].

فخطيئة آدم كانت إذن أثرا من آثار ضعف عارض، وجهد قاصر في مراعاة الواجب، ومن هنا لم تفسد فطرة الإنسان الأول بحيث تستلزم تدخل "مخلص" غيره نفسه، إذ كان

---

(72) المرجع السابق، ص ١٠٣.

(73) محمد عبد الله دراز: دستور الأخلاق في القرآن، تعريب عبد الصبور شاهين، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٧٣، ص ١٥٠.

يكفيه أن يعترف بخطيئته، ويظهر ندمه، لا ليغسل دنسه وتعود إليه سريرته النقية، كما كانت فحسب، ولكن ليربى هذا التائب الجديد، أو يرفع إلى درجة المصطفين الأخيار:

(ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى) (طه: ١٢٢)

والسلوك الأخلاقي في الإسلام، كسائر أنواع السلوك الإنساني الإرادي [74]، من جهة المسئولية، لا فرق بينه وبينها، وبالتالي فإن مسئولية الإنسان الحقيقية عن عمله منوطة باستيفاء الشروط التالية:

١- أن يكون صاحب العمل أهلا لتحمل المسئولية، فقد حدد الشارع أهلية تحمل المسئولية الدينية ذات العقاب الأخروي، بالعقل والبلوغ، أما فاقد العقل، فلا مسئولية عليه طبعا ولا اعتبار لأي عمل من أعماله، وأما غير البالغ فقد أعفاه الخالق من المسئولية الأخروية، وإن كان مميزا دون أن يحرمه من ثواب عمله الصالح، وذلك لتكون فترة ما قبل البلوغ فترة تربية وتعليم وإنضاج فكرى ونفسي، وخفف مسئوليته الدنيوية إلى مستوى المسئولية التربوية التي يتولاها أولياؤه المربون له فيؤدبونه بمختلف وسائل التأديب التي أذن بها الشارع، ومنها بعض أنواع العقاب المادي كالضرب والحرمان ونحوهما، ومنها بعض المؤاخذات الجزائية المالية. وتختلف وسائل التربية والتأديب باختلاف حال غير البالغ، مميزا كان أو غير مميز، قارب سن البلوغ أو لم يقاربه [٧٤]، قال سبحانه وتعالى:

(أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلاَةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلاَةِ الْعِشَاء ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ ...) (النور: ٥٨)

٢- أن يكون عملا إراديا [75]، أي صادرا عن إرادة صاحب العمل، وبناء علي ذلك، فإن الأعمال التي لا تكون إرادة الإنسان الحرة ذات وساطة ما في وجودها، لا يكون الإنسان مسئولا عنها.

والعمل الإرادي، منه ما هو إيجابي، كإنفاق في الخير وجهاد في سبيل الله، وتعليم الجاهلين ما ينفعهم في دينهم، وما ينفعهم في دنياهم ونحو ذلك [76]، والقسم السلبي هو ما يتعمد فيه الإنسان ترك العمل مع قدرته عليه، ولذلك يثاب الإنسان على ترك المحرمات إذا

---

(74) عبد الرحمن حبنكة الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، دمشق، بيروت، دار القلـــم، ١٩٧٩، ج١، ص ١٠٩.

(75) المرجع السابق، ص ١١١.

(76) المرجع السابق، ص ١١٢.

تركها بإرادته ناويا طاعة الله في ذلك، ويعاقب على ترك الواجبات لأن هذا الترك عمل سلبي تجاه أمر واجب التنفيذ.

٣- أن تكون نية الإنسان وغايته المقصودة له من عمله الإيجابي أو السلبي ما ينتج عن العمل فعلا من خير أو شر، فإذا كان لصاحب العمل نية أو غاية أخرى غير ذلك، فإن المسئولية الحقيقية عند الله تكون وفق نيته وغايته دون ظواهر السلوك وما نجم عنه، وأما السلوك الظاهر فيكون عندئذ من قبيل العمل الملغى وتكون نتائجه من قبيل القضاء والقدر المحض [77]، يقول عز وجل:

(...وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا) (الأحزاب: ٥)

٤- العلم بالعمل، وبما يؤدى إليه العمل من خير أو شر، وبحكم العمل الأخلاقي أو الشرعي [78]، وهنا تفتح أبواب لا حصر لها من الجهد التربوي والعمل التعليمي، يقول عز وجل:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ) (القصص: ٥٩)

٥- كون العمل مستطاع الفعل والترك [79]، ولذلك قال تعالى: (لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا) (الطلاق: ٧)

٦- أن يكون صاحب العمل متمتعا بحريته عند أداء العمل غير مكره عليه [80].

ولا يتحمل الفرد وحده مسئوليته عما يأتي من فعل أو قول، فهناك أيضا مسئولية جماعية تحملها الأمة، ومن هم في موقع القيادة منها، لتحفظ الأخلاق العامة، وتقيم الحدود، وتوفر الشروط الأساسية للأفراد والجماعات كي يمكن لها أن تقوم بما هي مكلفة به، فذلك من شأنه أن يوفر العدل.

وهذا اللون من التوجيه القرآني الأخلاقي في تحميل الجماعة مسئولية عملها الجماعي كثير في الخطاب القرآني، فكل خطاب في البيان القرآني يتجه إلى الجماعة بعنوانها الإنساني العام:

---

(77) المرجع السابق، ص ١١٣.

(78) المرجع السابق، ص ١١٢ .

(79) المرجع السابق، ص ١٢٥.

(80) المرجع السابق، ص ١٢٧ .

"يا أيها الناس"، أو بعنوانها الإيماني: "يا أيها الذين آمنوا"، وهو شاهد من شواهد التربية القرآنية في تحميل الجماعة مسئولية العمل الجماعي [81].

والقرآن الكريم عندما يتحدث عن المسئولية والجزاء إنما يفعل ذلك في مواجهة أولئك الذين كانوا يرون أنفسهم في مستوى خاص بهم، وأنهم من أصحاب الامتيازات، سواء في ذلك أهل الكتاب أو المسلمون أنفسهم أو المشركون، فبالنسبة للفريق الأول:

(وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (البقرة: ١١١)

وبالنسبة للمسلمين بين لهم أن قيمة الإنسان ليست في الانتماء إلى هذا الدين أو ذاك، وإنما هي في العمل الذي يقوم به الإنسان:

(لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ) (النساء: ١٢٣)

والتربية الأخلاقية القرآنية لا تقف عند مترلة العدل المطلق التي كان تحمل المسئولية مظهرها الأول، ولكنها في سبيل إعداد الفرد والجماعة لحياة اجتماعية فاضلة تقوم على أساس الترابط الأخوي في الأسرة الإنسانية كلها على وجه العموم، وفى الأسرة الإيمانية منها على الخصوص، تتسامى إلى آفاق مكارم الأخلاق التي لا تتقيد في إقامة العلاقات الاجتماعية بقيود الحق الواجب، وإنما تذهب منطلقة مع السماحة وروح التواد والمحبة والإيثار، ومن هنا يجئ قوله سبحانه وتعالى:

(وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (الحشر: ٩).

والذي يدرس الأخلاق الإسلامية في القرآن الكريم يجد أنها تشكل مذهبا متسقا، لا مجموعة من التوجيهات والآداب المتناقضة المهوشة، ذلك أن الأوامر المتناقضة لا يمكن أن تخضع لقانون واحد يحكمها جميعا، ودراسة هذه الأخلاق تبين خضوع الفضائل الأخلاقية في القرآن لقانون واحد يحكمها جميعا، لمبدأ التدرج في الوجوب والعلو، والقانون المبنى عليه، أي قانون العلاقة العكسية بين الوجوب والعلو.

ففي حالة تقابل فضيلتين في أي موقف واقعي، يجب الحفاظ على الفضيلة الأشد وجوبا (والأقل علوا)، والتضحية بالفضائل الأقل وجوبا (والأكثر علوا).

(81) محمد الصادق عرجون، ص ١١٦.

وليس على الفضيلة قيد يمنع تطورها ونموها إلا الحفاظ على الفضائل الأكثر منها وجوبا، ومعنى هذا أن الفضيلة الأخلاقية في القرآن لا تقاس بالوسط الأرسطي، فهي ليست وسطا، ومعيارها الوحيد هو التناسق الخلقي (82).

والمقصود بالتناسق، البدء بالفضائل الأكثر وجوبا، وعدم انتهاكها من أجل الالتزام بالفضائل الأقل وجوبا، وكل عمل فاضل مطلوب المضي فيه بقدر ما يجد المسلم إليه سبيلا، وهو لا ينقلب إلى رذيلة مهما تقدم وتطور، إلا إذا أفضى إلى انتهاك فضائل أخرى أكثر وجوبا، أو إذا استأثر بالمسلم ودفعه إلى إهمال الواجبات الأخرى الأكثر وجوبا أو المساوية في الوجوب.

هنا نقول أن التناسق الخلقي قد اختل، وندين الفضيلة أو العمل الفاضل الذي دفع إلى هذا الإخلال وننفى عنه الخاصية الخلقية.

٤ - أساليب للتعليم والتعلم:

ولأن القرآن الكريم دستور حياة المسلم، المنزل من قبل الخالق، لم يقف – وهو في سبيل تربية مخلوقه وهدايته إلى سبيل الرشاد والطريق المستقيم، في الدنيا والآخرة – عند حدود إخباره بالمقاصد التي ينبغي أن يقصدها في تعلمه وتعليمه، كما لم يقف عند حد أن يحدثه عما ينبغي أن يتعلم، ولا عند حد بيان طبيعة المتعلم حتى يسهل على المربى أن يحسن عملية التعليم، وإنما اهتم كذلك "بالكيفية" التي يمكن بها أن يقوم المعلم بتعليم ما لابد من تعليمه، والمربى بما يمكن أن يقوم به من فروض التربية والتنشئة بجوانبها المختلفة.

فمن أساليبه التي استخدمها في مخاطبة الناس، مبرهنا بذلك على أهميتها وضرورتها:

= **القصة ...** والقصة نوع من الأدب له جمال وفيه متعة، ويشغف به الصغار والكبار إذا أجيد إنشاؤه وأجيدت واسطته وأجيد تلقيه. والقصة أدب مقروء أو مسموع، وهى عند من لا يعرف القراءة أدب مسموع فقط، أما للقارئ فهي أدب مقروء ومسموع معا (83).

وقد عرف الإنسان أهمية القصة في حياته منذ زمن طويل لما لها من سحر يسحر النفوس، ولم يدر أي سحر هو وكيف يؤثر على النفوس؟ أهو انبعاث الخيال يتابع مشاهد القصة ويتعقبها من موقف إلى موقف، ومن تعرف إلى شعور؟ أهو "المشاركة الوجدانية" لأشخاص

(82) أحمد عبد الرحمن إبراهيم: الفضائل الخلقية في الإسلام، الرياض، دار العلوم، ١٩٨٢، ص ٢٨٩.
(83) عبد العزيز عبد المجيد: القصة في التربية، القاهرة، دار المعارف، د.ت، ط٥، ص١٢.

القصة وما تثيره في النفس من مشاعر تتفجر وتفيض؟ أهو انفعال النفس بالمواقف حين يتخيل الإنسان نفسه داخل الحوادث، ومع ذلك فهو ناج منها متفرج من بعيد؟ (84).

لذا فلن يكون من المبالغة منا إذا قلنا أن القصة كانت أول ما صحب الإنسان من تصورات عقله وصيد خواطره، وطوارئ أحلامه، وهواجس رؤاه. ولسنا بالمبالغين أيضا إذا قلنا أن هذه التصورات وتلك الخواطر والطوارئ والهواجس كانت أقوى قوة دفعت الإنسان إلى تحريك لسانه، وإلى إيقاظ قدراته، وإطلاق جميع القوى الكامنة فيه بحثا عن الكلمات التي يضعها على شفتيه ليصور بها تلك الأهوال التي تضرب في أعماقه، وتموج في مسارب تفكيره، وتتحرك على مسرح خياله (85).

نقول هذا لندرك بعض المرامي التي قصد إليها القرآن الكريم من هذا القصص الكثير الذي ضمت إليه آياته وسوره، ففي هذا القصص يلتقي الإنسان التقاء صادقا واضحا مع أقوى دوافعه وعواطفه التي ولدت معه في ضباب طفولته، والتي نضجت مع الزمن من صراعه الطويل مع الحياة، ومن هذه الدوافع وتلك العواطف يقاد الإنسان ويؤخذ بناصيته نحو الغايات التي تدعوه إليها القصة وتقوده نحوها، فالقصص القرآني هو أحد الأساليب التي حملها القرآن بين يديه ليحاج بها الناس، وليقطع المعاندين عن المماحكة والجدل، شأنه في هذا شأن ما جاء به القرآن من أساليب الاستدلال، والمناظرة، والتعجيز، والوعد والوعيد، وغير ذلك من المشاهد والمواقف المتعددة المبثوثة في القرآن الكريم كله.

ونسوق فيما يلي "أمثلة" و "نماذج" لبعض الأفكار التربوية التي يمكن استقراؤها من القصص القرآني:

- الأنبياء قدوة للمربين: فللأنبياء في القصص القرآني أقدارهم، فهم الذين يجددون بناء المجتمع بما يبثون من أفكار، ويبذرون من آراء ويوجدون من مبادئ، وهم الذين يلائمون بين حاجات الأمم ومقتضيات الزمان فيطيلون أعمارها ويباعدون بينها وبين الضعف والانحلال:

(فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) (هود: ١١٦-١١٧)

(84) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، القاهرة، دار القلم، د.ت، ص ٢٣٧.

(85) عبد الكريم الخطيب: مصادر القصص القرآني، مجلة الوعي الإسلامي، الكويت، السنة٨، العدد ٨٦، صفر ١٣٩٢هـ، ص ٢٩.

- التربية الخلقية: وللقرآن في هذا الشأن أساليب مختلفة في تضمين القصص القرآني ما يجب أن يسلكه المسلم من فضائل، وما يجب تجنبه من رذائل، فمن ذلك على سبيل المثال، عرضه لأخلاق بعض الجماعات أو أخلاق بيئة من البيئات، وأكثر ما يكون هذا اللون في قصص موسى عليه السلام، إذ في ذلك القصص نجد تصويرا لأخلاق اليهود، كما نجد بعض لفتات لأخلاق بعض المصريين القدماء، ومن خلال ذلك يفهم القارئ أن هذا يصح وهذا لا يصح، ومثال ذلك إشارة القرآن إلى رذيلة من رذائل اليهود، وهى "عدم الوفاء"، فقد كانوا – وما زالوا – ينقضون الإيمان بعد توكيدها، وقد كانوا ينكثون في كثير من الأمور التي اتفقوا عليها مع موسى عليه السلام، قال تعالى:

(وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ) (البقرة: ٩٩-١٠١)

- الإصلاح الاجتماعي: ونستبين ذلك بقراءة قصة شعيب عليه السلام، فقد قال سبحانه وتعالى:

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) (الأعراف: ٨٥-٨٧).

- إيقاظ العقل وتحريره: إذ كثيرا ما تجئ عوامل طارئة تؤثر على العقل وتقيده بأغلالها، لكن لابد من معالجتها وإصلاحها وإطلاق العقل من ربقتها ووضع أصول ثابتة لفهم الحقائق الكونية والحكم عليها ترد إلى العقل الإنساني اعتباره وتوليه تقديره ووزنه بقيمته الإنسانية الحقيقية التي جعلت من الإنسان كائنا مسيطرا على الحياة وموجها لها ورقيبا على نظمها وأوضاعها [86]، وفى ذلك تشير آية البقرة ٢٥٨ التي سبق أن استشهدنا بها في موضوع مشابه.وقال تعالى أيضا:

(86) محمد الصادق عرجون: القرآن العظيم، ص ٤١.

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـــكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَـــثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُـــمْ يَتَفَكَّـــرُونَ) (الأعراف: ١٧٥- ١٧٦)

إنها قصة عالم من بنى إسرائيل أتاه الله علم بعض الكتب فكفر فصار الشيطان له قرينا أضله وأغواه. ولو أنه عمل بما منحه الله من آيات لرفعه إلى منزلة الأبرار من العلماء، ولكنه مال إلى الدنيا، ورغب فيها وآثرها، فصار كالكلب في خسته وضعته، لأن الكلب يلهث دائما سواء حمل عليه الناس أم لم يحملوا، على حين أن الحيوانات لا تلهث إلا إذا ثارت وهاجت [87].

- دور المرأة: وفى القصص القرآني نرى المرأة نسيج متلاحم من التركيب الطبيعي للحياة الإنسانية، وإنها تأخذ مكانها في القصص القرآني كإنسان وكأنثى، فتهتدي وتضل، وتستقيم وتنحرف، وهى في جميع أحوالها أنثى تناظر الرجل، وتقاسمه الحياة من غير أن تزاحمه في وظيفته كرجل، ومن غير أن يزاحمها الرجل في وظيفتها كأنثى، وبهذا تنتظم حياة الجسد الاجتماعي، الذي يقوم كل عضو فيه بوظيفته التي لا يقوم بها غيره، والذي إذا كلف القيام بوظيفة غير وظيفته عجز، ودخل من عجزه هذا الاضطراب والاختلال في توازن الجسد كله [88].

وكل امرأة جاء ذكرها في القصص، سواء ذكرت باسمها، كمريم ابنة عمران، أو بصفتها كامرأة نوح، ولوط، وأبى لهب، وكامرأة فرعون، كل امرأة من هؤلاء، كان لها مكانها في الحياة، وكان لها دورها على مسرح هذه الحياة، فهي، والأمر كذلك، حقيقة تاريخية، لا شك فيها ولا افتراء، وصورتها في القصة القرآنية، هي صورة مصغرة لها، تحمل أبرز ملامحها وأوضح صفاتها، فما ذكر القرآن في قصصه إلا الحق [89].

---

(87) أحمد محمد الحوفي: القرآن والتفكير، القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، سلسلة دراسات في الإسلام (١٧٠)، ١٩٧٥، ص ٧٤.

(88) عبد الكريم الخطيب: المرأة ومكانها في القصص القرآني، الوعي الإسلامي، الكويت، الـــسنة ١٠، العدد ١١٧، سبتمبر ١٩٧٤، رمضان ١٣٩٤هـــ، ص١٢.

(89) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

- الوعي التاريخي: فقد كان للقرآن منهجه في تربية الوعي التاريخي عن طريق القصص، إنه يدعو الناس أن ينظروا، أن يتفكروا في تاريخ المسيرة الحضارية لأية أمة من الأمم كي يدركوا العلة التي أفضت إلى ما حل من وبال، قال تعالى:

(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (الروم: ٩)

ويستحث القرآن الوجدان أو الوعي أو اللب الإنساني بما يعرضه من قصص الأمم الغابرة أن يستشعر العلل المصيرية التي أدت إلى زوالها، قال تعالى:

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ...) (يوسف: ١١١)

والقرآن بهذا يؤكد الماضي عقليا ووجدانيا تأكيدا يسند الحاضر ويدعمه [90].

ومن أساليب القرآن الكريم التربوية:

= **التوجيه العملي** .... فلما كانت التربية تستهدف إحداث تغييرات سلوكية وعقلية ووجدانية في شخصية الإنسان، كان من الأوفق أن تنتهج في ذلك نهجا ينحو إلى التطبيق والممارسة والمباشرة والاشتباك مع هموم الحياة الواقعية والانصراف عن المناقشات النظرية التي لا طائل من ورائها وخاصة بالنسبة للمسائل والقضايا الميتافيزيقية حيث لا يملك الإنسان – كما سبق أن أشرنا – من وسائل الإدراك ما يتيح له البحث فيها.

ومن هنا تجئ حكمة التوجيه القرآني بالنسبة لبعض التساؤلات التي عنت للمسلمين بخصوص مسائل تنتمي إلى عالم الغيب الذي اختص الله نفسه بالعلم به، إذ رأى أن المهم هو ما يرتبط بهذه المسائل من سلوك وأعمال، من ذلك ما جاء في القرآن الكريم، إشارة إلى ما روى من أن رسول الله r سئل عن الساعة:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا)، فنفى علمه بها: (فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا)، ونبه إلى النافع من أمرها وهو وجوب الاستعداد لها: (إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا) (النازعات: ٤٢-٤٥)

وسئل عن الروح، فأمره الله أن يبين للناس أنها مما اختص الله نفسه بعلمه، ولا يتوقف أمر التكليف على معرفته، قال تعالى:

---

(90) محمد عبد الواحد حجازي: أثر القرآن الكريم في اللغة العربية، القاهرة، مجمع البحوث الإسلامية، ديسمبر ١٩٧١، ص ١٨٩.

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً) (الإسراء: ٨٥)، وهذا القليل، هو ما يكفى لإصلاح المعاش والمعاد.

والمستقرئ لحياة الإنسان العملية يستطيع أن يلمس بكل وضوح كيف يتعلم الإنسان عن طريق التجربة العملية في مواجهة مشكلات الحياة المختلفة، ومحاولة حلها والتغلب عليها، ويقابل الإنسان دائما في حياته مواقف جديدة لم يتعلم من قبل كيف يستجيب لها، أو كيف يتصرف فيها، ويتوافق الإنسان لمثل هذه المواقف الجديدة بأن يحاول أن يستجيب لها باستجابات مختلفة، فيخطئ في بعضها، وقد يصيب أحيانا، وهكذا يتعلم الإنسان دائما باستجابات مختلفة، وهكذا يتعلم الإنسان دائما عن طريق ما يسميه علماء النفس المحدثون: المحاولة والخطأ، استجابات جديدة للمواقف "الجديدة" وحلولا لما يقابله من مشكلات في حياته العملية (91).

ومن الناس – إذا كانوا قد تعودوا النفاق – من يتحدثون كثيرا ولا يفعلون إلا القليل، ومن كثرة ما يقولون يخدعون غيرهم، ومن قلة ما يفعلون يحرجون هؤلاء أشد الحرج، وهم ليسوا مكلفين من أحد ولا من أنفسهم أن يتحدثوا عما لا يستطيعون أن يأتوا به، والعاقل يدرك أن الأولى به، إذا كان لا يستطيع أن يفعل أو يشك في أن يفعل، ألا يذكر شيئا من قريب أو من بعيد إلى ما لا يستطيعه (92).

والقرآن، لكي يوضح أن القول الكثير، والعمل القليل، أو أن الوعد بأمر، ثم التخلي عنه، له ضرر على المتحدث نفسه، وضرر آخر على من يوجه الحديث إليهم، ومن ثم فهو ممقوت عند الله، جاء قوله سبحانه وتعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُـــونَ) (الصف: ٢-٣)

وعندما ركز القرآن على أهمية "القدوة الحسنة"، فلأنها نموذج "تطبيقي" لما يدعو إليه. إنه يعلم بهذا أن توجيهاته ليست مفارقة لعالم الواقع، وإنما هي تتسم "بالإمكان العملي"، والدليل واضح..هو أنها مجسدة في هذا السلوك أو ذاك من صفوة خلق الله، وعلى رأسهم رسول الله r ، وهو ما عبر عنه القرآن بقوله:

(91) محمد عثمان نجاتي: القرآن وعلم النفس، القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٩، ص ١٥١.

(92) محمد البهي: القرآن..والمجتمع، القاهرة، مكتبة وهبه، ١٩٧٦، ص ٨٨.

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) (الأحزاب: ٢١)

ففي هذا النص إرشاد عظيم من الله – تبارك وتعالى – للمؤمنين أن يجعلوا رسول الله قدوة حسنة لهم، يقتدون به، في أعماله، وأقواله، وأخلاقه، وكل جزئيات سلوكه في الحياة، فهو خير قدوة يقتدي به الأفراد العابدون، والأفراد الطامحون لبلوغ الكمال الإنساني في السلوك (93).

وإذا كان القرآن قد ركز إصلاحه على إصلاح القلب الإنساني، فإنه لم يهمل الإصلاح العملي، حتى لا يترك الناس على غير هدى، وهو في ذلك لا يتورط في جزئيات هذه الإصلاحات، وهو حين يتناول هذه المعاني، يتناولها بكل دقة وبكل حكمة، ويمسها مسا كليا، يجعل تطبيقها نافعا، وينتج الخير في كل مكان وزمان، وبما أن الناحية الاقتصادية ناحية من النواحي التي تتغير لدى الناس بتغير الظروف، فقد جاء القرآن الكريم يمسها مسا كليا ويضع القواعد التي تكفل للناس أن ينتفعوا بخيراتها ويبتعدوا عن مساوئها (94).

وإذا كان الإسلام قد أعطى العمل هذه القيمة العليا، فقد حرص في الوقت نفسه أن يمنع إرهاق العامل وتحميله أكثر مما يطيق، بمعنى أن يكون العمل متفقا مع طاقات الفرد الجسمانية والذهنية، ومع حالته النفسية، فما يقدر عليه شاب قوى مفتول العضلات، يعجز عنه الحدث الصغير أو العجوز الذي تقدمت به السن، وثمة أعمال يقوم بها الرجل وقد تعجز عنها المرأة، أو لا ينبغي تكليفها بها، ومن قبيل ذلك استخراج المعادن وحمل الأثقال مثلا، كذلك تتفاوت قدرات الناس من ناحية الذكاء (95)، ففي الآية:

(قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ...) (القصص: ٢٧)

ومن أساليب القرآن التربوية:

= **العبادات ...** فالمتتبع لأسلوب القرآن في هذا المجال يمكن أن يقول، إن صفات الشخصية كما ينبغي أن تكون في التصور القرآني، وإن ذكرت في آيات كثيرة، وفى سور متفرقة، قد جمعت في مواضع معدودة بحيث يمكننا أن نعتبرها الأساس في حصر هذه

(93) عبد الرحمن حبنكة: الأخلاق الإسلامية، ج١، ص ٢٠٤.

(94) حسن البنا، نظرات في كتاب الله، القاهرة، مكتبة الاعتصام، ١٩٧٨، ص ٤٨.

(95) راشد البراوي، التفسير القرآني للتاريخ، القاهرة، دار النهضة، ١٩٧٦، ص ٣٨.

الصفات، إذ كل ما جاء في الآيات الأخرى يندرج تحت واحدة منها أو يمثل نوعا من أنواع تطبيقها [96]. هذه المواضع نجدها في قول الله تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) (الأنفال: ٢-٤)

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (المؤمنون: ١-١١)

وجملة هذه الصفات أعد الله لها "صيغة تدريبية" من شأنها أن تربى المؤمنين وتنشئهم في الاتجاه الذي يوصل المسلم إلى القرب من الله، هذه الصيغة التدريبية هي: العبادات. والحق أن الدين يعرف بعباداته بين أناس كثيرين لا يعرفونه بعقائده، وربما استدلوا على العقائد بالعبادات، لأن العبادة فرع من العقيدة يشاهد عيانا في حيز التنفيذ أو التطبيق، ولكنها على هذا، من فروع العقائد التي يقل فيها الخلاف وتضيق حولها مواضع الجدل في الخصومات المذهبية [97].

ولتنوع العبادات سر خفي، فكل عبادة منها تبنى جانبا من جوانب الشخصية الإنسانية، المادية منها والمعنوية، وذلك كما تتنوع "الفيتامينات" لتبنى أركانا متنوعة في جسم الإنسان، فالصلاة، تبنى جانب الحركة والنشاط، والزكاة تبنى عواطف الحب والإيثار، والصوم يبنى ضمير الإنسان ويغذى روحه وأشواقه، والحج يبنى النزعة الفطرية للاجتماع، ويعبر عن دوافع الأسفار والرحلات [98].

والعبادات إنما هي روافد متعددة، لكنها تصب في مصب واحد تعبر عنه الآية الكريمة:

---

(96) أحمد إبراهيم مهنا: مقومات الإنسانية في القرآن الكريم، القاهرة، مجمع البحوث الإسلامية، سلسلة البحوث الإسلامية، ١٩٧٠، ج١،ص ٤٥.

(97) عباس محمود العقاد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، القاهرة، دار الهلال، سلسلة كتاب الهلال (١٦٩)، أبريل ١٩٦٩، ص ١٠٩.

(98) توفيق محمد سبع: هكذا نصوم، القاهرة، مجمع البحوث الإسلامية، أكتوبر ١٩٧١، ص ١٧.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة: ٢١)

فثمرة العبادات السليمة المقبولة هي أن تصير بالعابد إلى التقوى، والتي هي "القيمة الأم" التي تتولد منها كل القيم الأخلاقية، ذلك أن طريق العبادة يقود إلى تقوى الله ومراقبته ومخافته ومهابته في السر والعلن، وكلما كانت العبادة متقنة خاشعة قادت إلى التقوى، فالعابد الحق يراقب ربه في كل عمل، ويخافه في كل تصرف، ويعمل حسابه في كل حركة..إنه يحس برقابته عليه سواء وهو في بيته، أو في المجتمع، وبذلك يتكون ضميره الذي يعصمه من كل انحراف ويحرسه من الفساد [99].

ومن وسائل القرآن التربوية:

= الجدل والحوار ... فالقاعدة الأساسية هنا أن التعلم لا يكون إلا لما فهم وتم الاقتناع به، وقد يفهم الإنسان أمرا يسمعه أو يقرؤه، لكن فهمه له لا يعنى أنه اقتنع به. وإذا كان الفهم سبيلا إلى التعلم، فإن اقترانه بالاقتناع يزيد التعلم رسوخا، سواء في التلقي والاحتفاظ أو في التذكر والعمل بما تعلم [100].

ومن الأوليات المسلمة أن العقائد لا تتكون في نفوس العقلاء بالقوة والقهر:

(لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ...) (البقرة: ٢٥٦)

(وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ...) (الكهف: ٢٩)

، ولكن لها وسائل معروفة لا تلتمس إلا بها، وفى مقدمتها البرهان العقلي [101].

وأبرز ما يمثل النهج العقلي الذي يستهدف الإقناع، كل من الجدل، والحوار ...

والجدل جزء من فطرة الإنسان: (...وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً) (الكهف: ٥٤)، ومن هنا قدر الإسلام، وهو دين الفطرة، طبيعة هذا الإنسان التي تختلف عن طبيعة الملائكة وبقية الكائنات، فلم ينكر عليه الجدال إلا أن يكون مماراة فاحشة في الحق الجلي والآيات البينات، عن عناد ومكابرة، أو عن إصرار على الجهل والضلال:

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ) (الحج: ٨-١٠)

---

(99) المرجع السابق، ص ٢٠٤.

(100) سعيد إسماعيل على: القرآن الكريم، رؤية تربوية، ص ٣٥٩ .

(101) عبد العزيز جاويش: الإسلام دين الفطرة والحرية، القاهرة، دار الهلال، سلسلة كتاب الهلال (١٨)، ١٩٥٢، ص ١٤٣.

لكن عندما يكون جدال الإنسان عن حاجة إلى الاقتناع، فمن حقه أن يُصغى إليه ويجادل بالتي هي أحسن، وبهذا أمر نبي الإسلام والمسلمون:

(ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (النحل: ١٢٥)

و لم تقف آداب الجدل في القرآن الكريم عند طلب أن يكون الجدل بالتي هي أحسن فقط، وأن يكون الحوار قائما على "علم" ومعرفة، وإنما تجاوز إلى أخلاقيات أخرى من أخلاقيات الجدل القرآني، وهى أن يكون الحق هو المستهدف من الجدل وليس الباطل، ومن هنا نهى القرآن الكريم النبي **r** أن يجادل من ليسوا على الحق، وهو نهى يقصد به جميع المسلمين، يقول تعالى:

(...إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا) (النساء: ١٠٧)، ويقول:

(هَاأَنتُمْ هَـــؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً) (النساء: ١٠٩)

وبالنسبة للحوار فقد جاء ثلاث مرات، في مثل قوله تعالى:

(وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا) (الكهف: ٣٤)

وسواء كان الأمر أمر جدل أو حوار، فقد دعا الله – سبحانه وتعالى – إلى ضرورة الالتزام ببعض القواعد والآداب، أشرنا إلى بعضها من قبل، ونشير فيما يلي إلى بعض آخر (102):

- الابتعاد عن الهوى: (فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ) (الأعراف: ١١٩)
- تنحية مشاعر البغض والكراهية جانبا: (...يَا وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ...) (المائدة: ٨)
- تجنب تحريف الكلام عن مواضعه: (مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ...) (النساء: ٤٦)
- التزام الإنصاف عند التحكيم: (...قَالُوا لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلاَ تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاء الصِّرَاطِ) (ص: ٢٢)

(102) منتصر محمود مجاهد: أسس المنهج القرآني في بحث العلوم الطبيعية، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٦، ص ٥٦، وما بعدها.

- تجنب تبديل القول بما يفيد ضرورة التزام الإنسان بحدود ما سمع أو رأى، يقول تعالى: (فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ...) (البقرة: ١٨١)
- اتباع الصادقين في قولهم: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ) (التوبة: ١١٩)
- البعد عن صور وممارسات التفكير الخرافي: (...يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ ...) (البقرة: ١٠٢)
- الالتزام بالاستناد إلى العلم في تقديم الحجج: (هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ...) (آل عمران: ٦٦)

ومن وسائل القرآن التربوية كذلك:

= **ضرب المثل، والتساؤل ...** فقد استخدم القرآن أسلوب "التشبيه" كي يقرب المعاني ويشير إلى أمور حسية لشرح أفكار مجردة لأنه لا يخاطب فئة المثقفين وحدهم، وإنما يخاطب مختلف الفئات التي منها أقوام أميون، لا تستطيع عقولهم أن تقفز مرة واحدة إلى المعقولات، وإنما لابد لها من المرور في مرحلة الإدراك الحسي، مثلما نجد في قوله عز وجل:

(ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ للّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) (النحل: ٧٥-٧٦)

ويقول سبحانه: (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ...) (الروم: ٥٨)، فلو لم تكن الأمثال من أمضى أسلحة الخصومة الكلامية، ولو لم يكن لها من السطوة والسلطان على النفوس ما ليس لغيرها، لما ركن إليها – مثل هذا الركون – في مثل هذه الخصومة والمحاجة، كما يرينا القرآن أنه إذا كانت أمثاله نارا أحرقت أباطيل المبطلين، وسيوفا شهرها في وجوه المعاندين والمكابرين، فإنها نور يكشف تصويرا وتشخيصا للأشياء إحقاقا للحق، وإزهاقا للباطل، وفيها العبرة لمن اعتبر، والتذكرة لمن شاء أن يتذكر، فهي تجسد ذلك وتبرزه

عن طريق الصورة المحسة، ومن هنا كانت الأمثال خير باعث على التذكير والتفكير والاعتبار [103]، قال تعالى:

(...وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (الحشر: ٢١)، ويقول:

(...وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) (إبراهيم: ٢٥)

وتعتبر أمثلة القرآن على اختلافها لوحات فنية رائعة لتصوير مشاهد الطبيعة بأشكالها وأنواعها المختلفة، وفى هذه اللوحات مشاهد ألفتها العرب وعرفتها في حياتها النوعية الخاصة، وفيها ما لم تعرفه ولا رأته ولا سمعت به مما قد يعرفه بعض الأمم والشعوب الأخرى، فالقرآن إذ يضرب الأمثلة بهذه المشاهد المنتزعة من مظاهر الكون وصوره، يؤلف بين القيم والمبادئ المجردة التي تنزل من أجلها، والمشاهد الطبيعية التي يعيش الإنسان في أكنافها، وفى ذلك من إبراز وحدة الحقائق الكونية وترابطها الكلى ببعضها ما يطول شرحه ويعظم خطره [104].

وتأتى الوظيفة التربوية لضرب المثل في القرآن من خلال السبل التالية:

- تقريب صورة الممثل له إلى ذهن المخاطب [105]، مثلما رسم القرآن في بعض سوره، صورا محسة وصفت الجنة وأنهارها، كما في قوله سبحانه: (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ) (محمد: ١٥)

- الإقناع بفكرة من الأفكار، والذي يصل أحيانا إلى مرتبة إقامة الحجة البرهانية الملزمة التي تفيد اليقين [106]، كما نجد في قوله تعالى: (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ) (يس: ٧٨-٨١)

---

(103) محمد جابر الفياض: الأمثال في القرآن الكريم، هيرندن، فيرجينيا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٣، ص٢٦٣.

(104) محمد سعيد البوطي: من روائع القرآن، ص ١٨٢.

(105) محمود بن الشريف، الأمثال في القرآن، القاهرة، دار المعارف، سلسلة إقرأ، يناير ١٩٦٥، ص ٦٠.

(106) محمد بكر إسماعيل، الأمثال القرآنية، القاهرة، مطبعة الأمانة، ١٩٨٦، ص ٤٤.

- الترغيب والترهيب، بذكر محاسن ما يرغب فيه ومساوئ ما ينفر منه، يقول سبحانه وتعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَاء) (إبراهيم: ٢٤-٢٧)

أما بالنسبة للتساؤل، فالمفروض فيه أنه بحث عن المعرفة، لكنه في القرآن، إذ يقع من الله عز وجل، علام الغيوب، لا يكون الأمر كذلك، وإنما يوجهه لعباده إيقاظا لعقولهم وحثا على التفكير بحثا عن الإجابة، فضلا عن أنه يجئ أحيانا للتبكيت.

وفى مجال التعليم، يعد التساؤل أسلوبا على درجة عالية من القيمة التربوية، لأنه يدفع طلاب العلم أن يشحذوا ذهنهم لاقتحام منطقة مجهولة من المعرفة والربط بين الجزئيات والبحث عن الحكم والغايات والدوافع.

وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم وتتبعنا مادة "سأل" ومشتقاتها في آياته الكريمة لوجدنا أنها ذكرت في القرآن مائة واثنين وثلاثين مرة، ويدور معناها حول ما يأتي [107]:

- بمعنى الاستخبار، كما في قوله تعالى: (سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ) (المعارج: ١)
- الاسترشاد وطلب المعرفة، كما في قوله (...فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ ...) (الأنبياء: ٧)
- سؤال الطلب وعرض الحاجة كقوله (يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ...) (الرحمن:٢٩)
- سؤال المخاصمة والمجادلة، كقوله: (عَمَّ يَتَسَاءلُونَ) (النبأ: ١)
- سؤال الإجابة والاستجابة كقوله (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ...) (البقرة: ١٨٦)
- سؤال المحاسبة والمناقشة كقوله (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ) (الحجر: ٩٢)

.....

وفى نهاية هذا الفصل، نذكر بقوله سبحانه وتعالى:

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَـئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) (البقرة: ١٢١)

(107) محمد إبراهيم الشافعي: المسئولية والجزاء، ص ٣٣.

ويؤكد الشيخ محمد رشيد رضا أن المعنى المقصود هنا هو، أي يفهمون أسراره ويفقهون حكمة تشريعه [108].

وقد أثنى الشيخ محمد عبده على هذا التفسير، فالقرآن عبر عن التدبر والفهم بالتلاوة حق التلاوة ليرشدنا إلى أن ذلك هو المقصود من التلاوة التي يشترك فيها أهل الأهواء والبدع مع أهل العلم والفهم. والتعبير يشعر بأن أولئك الذين حكم بنفي رضاهم عن النبي r نفيا مؤكدا، لا حظ لهم من الكتاب إلا مجرد التلاوة وتحريك اللسان بالألفاظ، لا يعقلون عقائده، ولا يتدبرون حكمه ومواعظه، ولا يفقهون أحكامه وشرائعه، لأنهم استغنوا عنه بتقليد بعض الرؤساء، والاكتفاء بما يقولون، فلا عجب إذا رضوا عما جاء به النبي، ولا ضرر في إعراضهم، وأما الآخرون فإنهم، لتدبرهم وفهمهم أسرار الدين، وعملهم بوجوب مطابقتها لمصالح المكلفين، يعقلون أن ما جاء به هو الحق الذي يتفق مع مصلحة البشر في ترقية أرواحهم، وفى نظام معايشهم فيؤمنون به، وإنما ينتفع بإيمان أمثالهم [109].

ومن هنا حق لمجدد مثل حسن البنا أن يعجب من موقف الناس أمام كتاب الله تعالى، ويقول إن موقف الناس في أيامنا هذه من كتاب الله كمثل جماعة أحاط بهم الظلام من كل مكان، فهم يتخبطون فيه، ويسيرون فيه على غير هدى، فتارة يقعون في هاوية، وأخرى يصطدمون بحجر، وثالثة يصطدم بعضهم ببعض، ولا يزال هكذا يخبطون خبطا عشوائيا، ويسيرون في ظلام دامس، مع أن بين أيديهم زرا كهربائيا لو وصلت إليه أصابعهم، فإن حركة يسيرة يمكن أن توقد مصباحا مشرقا منيرا، فهذا هو مثل الناس، ومثل كتاب الله، وموقفهم من كتاب الله [110]:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

لا يستطيعون سبيلا إلى الهداية، وبين أيديهم النور الكامل:

(...قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) (المائدة: ١٥-١٦)

(108) تفسير المنار، ج١، ص ٣٦٨، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(109) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(110) حسن البنا، نظرات في كتاب الله، ص ٣٠.

وحتى يحسن الباحث التربوي التعامل مع القرآن الكريم باعتباره المصدر الأساسي للتربية الإسلامية، فلابد من الالتزام بهذه الخطوط العريضة التي يقترحها شيخنا الدكتور يوسف القرضاوي [111]، وشيخنا، وإن كان قد وضع هذه المعالم لتنظيم عمل "المفسر" للقرآن الكريم، فإن الباحث التربوي هنا لا يستهدف تفسير القرآن بالمعنى المعروف، ولكنه بدرجة ما، عندما يغوص في آياته ليفهمها ويستنبط منها ما يبحث عنه، يقوم بدور تفسيري، مما يحتم أن يسترشد به المعالم:

١- الجمع بين الرواية والدراية، أي الجمع بين صحيح المنقول وصريح المعقول، والتأليف بين تراث السلف ومعارف الخلف.

٢- تفسير القرآن بالقرآن، ذلك أن القرآن الكريم يصدق بعضه بعضا، ويفسر بعضه بعضا، فما أجمل في موضع فصل في موضع آخر، وما أبهم في مكان، بين في آخر.

٣- تفسير القرآن بالسنة، مصداقا لقوله تعالى: (إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا) (النساء: ١٠٥)

٤- الانتفاع بتفسير الصحابة، فهم تلاميذ المدرسية النبوية المحمدية، فيها تخرجوا، ومنها اقتبسوا، وامتازوا بمشاهدة أسباب التنزيل وقرائن الأحوال، فرأوا وسمعوا ما ير غيرهم و لم يسمع

٥- الأخذ بمنطق اللغة، فما دام القرآن قد نزل (بلسان عربي مبين) (الشعراء: ١٩٥) يجب أن يفسر اللفظ بحسب ما تدل عليه اللغة العربية واستعمالاتها.

٦- مراعاة السياق، فيجب أن نربط الآية بالسياق الذي وردت فيه ولا تقطع عما قبلها وما بعدها، ثم تجر جرا لتفيد معنى أو تؤيد حكما بقصد قاصد

٧- ملاحظة أسباب النزول.

(111) يوسف القرضاوي: المنهج الأمثل في التفسير، مجلة المسلم المعاصر، القاهرة، العدد ٨٣، فبراير / أبريل ١٩٩٩، ص ١١-٣٣.